

إبراهيم الكوني



الشَّرْخ

الجزء الأول

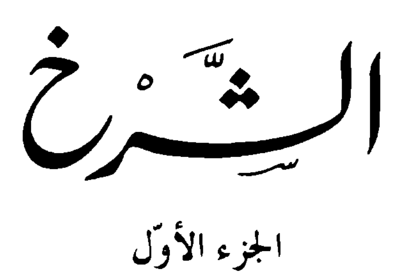


دار النهار

إبراهيم الكوني

سأسرّ بأمري لخلاني الفصول

ملحمة روائية



الجزء الأوّل



سأسرّ بأمري لخلاني الفصول
ملحمة روائية



الجزء الأول

الطبعة الأولى، كانون الثاني ١٩٩٩

ص.ب. ٢٢٦-١١، بيروت - لبنان
فاكس ٩٦١-١-٧٣٨١٥٩

ISBN 2-84289-114-7

إلى شقيقين، بروحٍ واحدة، وجِرْمين اثنين:
آدّه وإبراهيم . .

«فلمّا كمُلت أيّامها لتلد إذا في بطنها توأمان. فخرج الأوّل أحمر كفروة شعر، فدعوا اسمه عيسو. وبعد ذلك خرج أخوه ويده قابضة بعقب عيسو، فدُعي اسمه يعقوب».

سفر التكوين (٢٥: ٢٤، ٢٦)

«الحياة ـ سيرة، مرويّة على لسان معتوه،
ملآنة بالصخب والعنف،
وهي لا تعني شيئاً».

▪ شكسبير، «ماكبث»، (٥، ٥)

* * *

كأنّي حين أُمْسِي لا تكلّمني
ذو بُغْيَةٍ يبتغي ما ليس موجودا

▪ عمر بن أبي ربيعة

المحتويات

ريحُ الربيع
(آمنُاي)

١

هل تستطيع يا رسول الجنوب أن تركن إلى التسليم أخيراً لتسمع سيرتي؟ هلِ تستطيع أن تصير لي قريناً مرّة واحدة لأطمئن إليك وأحدّثك عن أمري؟ ألا تستطيع أن تتسامح يوماً وتشدّ حزام المطيّة قبل أن تمزّق سياط النار آفاق الشمال، ويقبلٍ على البقاع مولانا «هرو»(*) في غزوٍ لا تملك لمغالبته سبيلاً؟ ألن يأكل قلبك الحَسَد إذا رأيتني أخلو إلى مولانا المطر لأحدّثه بأمرٍ كنتَ بسماعه أجدر؟ أم أن مولاي يأبى إلاّ أن يعرف سرّ اختياري لجلالته جليساً أبثّه شجوني وظنوني وسرّي؟ ألا يدري مولاي «آمناي»(**) أني التقمت الوصيّة من ثدي الصحراء، ككل أبناء الصحراء، وتعلمت أن أقرأ في أفعالك بشارات يراها البلهاء بلاء ومكائد؟ هل تريد أن أحدّثك

(*) هَرُوْ: إله المطر.
(**) آمناي: إله الريح (القِبْلي).

بعض أفعالك التي يراها الأغيار شرًا وخراباً، في حين لا يصعب على الدهاة أن يقرأوا في الرسالات البشارة على عادة السحرة الذين لا يبالون بأجرام الخلق، ولكنهم يترصّدون ظلال الخلق؟ ولكنّي لا أريد أن أحدّث مولاي بسرّ مولاي لسببين: أوّلهما لأني أرى مولاي في عجالة أبديّة، فلم أشأ أن أطيل عليه. ثانيهما: لأني أنوي الانطلاق لأدرك بعائري التي أخبرني الرعاة أنهم رأوها تجتاز السهول الوسطى في السبيل إلى «تادرارت» جرياً وراء كلأ شحيح جادت به سحابة عابرة؛ ومولاي يعلم أن سباق الليل والنهار لم يرحمني، فرماني بالوهن وداء المفاصل وضعف البصر، ويلزمني وقت طويل حتى أدرك الإبل التي أعرف أنها ستلجأ إلى وديان «مساك صطفت» أو «مساك ملّت» فلا أستطيع لإدراكها سبيلاً. فليتمهّل مولاي، أخيراً، وليسمع مفتتح روايتي، لأني رأيت أن أبدأ بمجالسة مولاي أوّلاً، لا لأنه المولى الوحيد الذي يستبدّ بالصحراء في مثل هذا الوقت من كل عام، ولكن لأني قررت أن أطلق العنان للسان ليروي سيرتي قبل أن يباغتني الخفاء ويأخذني إلى دنياه البعيدة، فآخذ معي سراً تقْتُ دائماً أن أرويه لخلاّني الأربعة الذين لا أملك في هذا الوطن الخالي خلاّناً سواهم منذ ذلك اليوم الذي توارى فيه القرين، فهل خمّن مولاي عن أيّ خلاّن أتحدّث؟ لا يُخفى على مولاي أن المخلوق الذي رماه سباق الليل والنهار بالأوجاع، ووسمت الصحراء جبينه بالعزلة، لا بدّ له في بعض الأحيان أن يتحايل ليتسلّى. أصدقك القول أني مللت ثرثرات الجنّ، وأضجرتني دعاباتهم الشقيّة فقررت أن أحدّث أخياركم بأمري قبل أن يباغتني السباق اللئيم في تقلّب الليل والنهار، ويجيء الخفاء ليأخذني إلى المكان الذي لا أستطيع أن أجد فيه إبلي، ولا أستطيع أن أحدّث فيه أحداً بأمري. ألا يتلهّف مولاي، أيضاً، في بعض

الأحيان، لإسماع الكائنات أمره؟ ألاَ يتوق مولاي، أحياناً، لإطلاق العنان لعضلة اللسان ليخبر السماء أو الصحراء بسرّه؟ ألا يحمل مولاي، كما تحمل كل الكائنات، ذلك السرّ الذي لا يستطيع أن يخفيه طويلاً، ولا يريد أن ينتظر سباق الليل والنهار، فيأخذه معه إلى وطن الخفاء قبل أن يجري به سلطان اللسان؟ إذا صدق حدسي فإن سرّ مولاي أكبر من كل الأسرار لأن وطن مولاي الخلود، والخلود غار يخفي كل الأسرار، فليغفر مولاي فضول السؤال، وليعلم أن اختياري لم يقع على جلالته استجابة للهوى، أو تلبية لرغبة وسواس، ولكن تنفيذاً لمشيئة الناموس الخفيّ الذي وضع في عنق مولاي الرسالة ليركض بها في الصحراء مع حلول الربيع؛ وألبس القمر في فصل الصيف بهاء يفوق بهاء اللحون في أفواه الصبايا؛ ووضع في يد مولانا «هرو» سياط النار ليحرق الآفاق ويروي ظمأنا الطويل إلى شراب السماء؛ وسخّر الكهوف في الشتاء لتأوي إلى جدرانها اشباح الخلاء واشباح الخفاء. أفلا يرى مولاي أنني لم أخالف مشيئة الناموس عندما قررت أن أبدأ بمجالسة مولاي؟ ألا يطيب لمولاي أن يشمّر عن ساعديه، ويعض بأسنانه على طرف جلبابه على طريقة الصبيان، قبل أن ينطلق لغزو الصحراء في الربيع؟ ألا يجتهد أهل السوء في هذا الفصل من العام لوسم جلود الغزلان برموز السحرة، ويهرعون لدس هذه التمائم الفظيعة في أحافير القيعان، أو شقوق الصلد، أو شعاف الأخبية، لتقييد حركة مولاي ومنعه من الانطلاق، ظنّاً من هؤلاء البلهاء أن مولاي لا يقبل على الصحراء إلاّ ليجعل نباتها يبساً، وسهولها يباباً، وأرضها عراء؟ ولكن الصحراء علّمتني تعويذة أخرى لا أنوي أن أحدّث بها مولاي الآن لأني انتويت أن أبدأ حديثاً آخر، لأني قررت أن أروي أمري، لأني اخترت رسول الخفاء، مولاي «آمناي»،

الذي يهبّ على الأنام في الربيع ، لا ليعيث في الأرض فساداً كما يظنّ البلهاء والخبثاء، ولكن لأن الناموس هو الذي اختاره، في الزمان القديم ، سلطاناً يفتتح بمشيئته الفصول. فلمن أرفع ، يا مولانا، أمري إن لم أرفعه لخلاّني الفصول؟ وبمن من بين الخلاّن أبدأ إن لم أبتدئ بخليل الخافيات وسلطان الفصول؟

٢

لا أعرف ، يا مولاي ، لماذا بدا لي قمر ذلك المساء قمراً اختلف عن كل الأقمار التي أضاءت الصحراء في تاريخها كلّه . وبرغم حداثة عهدي ، يومها ، بالدنيا ، وبأقمار الدنيا ، إلاّ أني لا أستطيع أن أنسى تلك الوسوسة المجهولة التي انتابتني ما أن بلغنا شعفة الرابية ، وفوجئت بذلك المخلوق الخفيّ المعلّق فوق عرش الضريح . ساعتها أدركت ، يا مولاي ، أن أمراً سيحدث . أدركت أن الصحراء قد تنفست خطراً ، والسكون الجليل يهدّد بالبلبلة ، والأركان ستتزلزل . أدركت أن سكون الصحراء حجّة الكائن عندما يعجزه جلال الأمر عن الكَلِم ، كما كان سكوت الكائن المعلّق فوق رأس الضريح حجّة العاجز عن الإخبار بأمر يعجز عن البوح بخبره اللسان . يومها آمنت (كما يليق بذلك العقل المارد الذي يسمّيه الكبار عقل الصغير) بأن الصحراء وطن لا يحتاج أهله إلى لسان ، ما دامت

كائناته تتكلم بلا لسان كما تكلّم القمر في مساء ذلك اليوم.
أعترف، يا مولاي، أن ذلك الإله صار لي خلاً، كما صرت لي أنت خلاً، منذ تلك الليلة. بدأت السيرة التي توقعت أن تبدأ. بدأت في الحال. أخذني الوالد من يد الوالدة وربطني بحبل في رسغ الرجل. شدّ الحبل إلى وتد. دقّ الوتد بحجر في الأرض بضربتين. ولكن الضربتين زعزعتا سكوت الدنيا، صدر الأم ينطلق بحشرجة لا تنتمي إلى أصوات المخلوقات التي تدبّ على قدمين. غمغمة إنسان غصّ بعظم. أثناء الغمغمة المجهولة كانت تحاول الافلات من يدي الأب لترمي نفسها على جسدي المشدود إلى وتد الأرض. ولكن الأب اعترضها بعناد بطولي لم ادرك له سبباً. لم يمنعها من الوصول إليّ، ولكنه دفعها بعيداً، وجرجرها نحو الضريح. تحوّلت غمغمة الأم أنيناً مكتوماً، موجعاً، حرق قلبي ليلتها ولا يزال يحرق قلبي إلى اليوم. تنزّل الصمت مرّة أخرى. تنزّل ذلك الجنس من الصمت الذي نسمع فيه صوتاً مزدوجاً من فرط سكونه. البدر المعلّق فوق رأسي زاد الأمر الجليل فتنة، وغموضاً، ووعيداً. أجل يا مولاي. في تحالف البدر مع صمت تلك الليلة سمعت المكيدة بأذني هذه. يعلم مولاي أن اللسان الذي يتكلّم هو اللسان الذي لا يتكلّم وعضلة الفكّين التي تطعن الهدوء الجليل بصوتها المنكر لا تخبر بالحقّ الذي يجري به الخفاء، والقول المسموع لغو لا يصدقه إلاّ بلهاء القبائل وأراذل السلالات، وما سمعته في الوهلة التي غاب فيها الوالدان وراء بنيان الضريح لا يمت بصلة لثرثرات أهل الكلم المسموع، ولكني سمعته في امتداد الخلاء الصارم، المغمور بضياء الإله الفضي الأعلى، والتحامه بأركان المتاهة الأبدية التي تطوق الصحراء من الجهات الأربع. في تدفق ضياء الأشعار على الرقعة الملفوفة في أكفان السكون، في تسلّل أنسام

الشمال المبلّلة برطوبات البحار البعيدة إلى بحر الصحراء لتختلس العناق على عجل مع فروة الطلحة الوحيدة المنتصبة في حضيض الرابية، في وجوم الحجارة التي تدوس اجداث القدماء في مقابرهم المنتشرة في السهول والسفوح وقمم المرتفعات، في إيماء أنواء سرق الإله الغريم من اضوائها شدّة الإيماء، فازداد وميضها دلالة وغموضاً، في العهد المبرم بين السماء والأرض تكلم الخفاء بالخبر قبل أن تكمله الأقدار إبداعاً تجري به البادية. فما حاجتي إلى اللسان؟ ما حاجة الناس إلى الكلام؟ ما حاجة الكائنات لهرج يشوّش البال، ويملأ القلب بلبلة صارت للناس حياةً بدل الحياة؟ ساعتها، يا مولاي، لم أسمع، ولكني رأيت. سمع القلب، يا مولاي، ليس سمعاً، ولكنه رؤيا. سمع القلب ليس لغواً لأنه ليس صوتاً منكراً دنّس حرم السكون. في ساعة الرؤيا، في الغمضة التي قدح فيها المجهول شرر النبوءة، في رفّة الرموش التي سبقت ميلاد الأمر، أدركت، يا مولاي، لماذا أودع الوالدان قريني عند الجارة الأرملة، ولماذا شدّ الأب وثاقي إلى الوتد. في ومضة الإلهام استعدت ما حدث عندما حاولا اغوائي بحفنة التمر لاستبقائي في الخباء. قبل ذلك بيوم حاولا اقناعي بمرافقة أحد الرعاة إلى المراعي مقابل وعود مزيفة. في صباح نفس النهار حاولا أن يتركاني وديعة في عنق نفس الجارة الأرملة التي تطوعت لإيواء توأمي في بيتها، ولكن الجارة هدهدت تراب الأرض خوفاً من الأذى وإبعاداً للشرّ، واسودّ وجهها استنكاراً وغيظاً قبل أن تفزّ واقفة وتفرّ إلى بيتها. ضحكتُ بصوت عالٍ يومها. التقطت حجارة وركضت وراءها حتى أدركتها. ألقيت الحجارة تحت قدميها تعبيراً عن امتناني. رمقتني بدهشة ممزوجة بإيماء امتنان أيضاً؛ لأن المسكينة التي اعتادت أن تتلقى حجارتي على جسدها، أدهشها أن ألقي حجارتي تحت

قدميها. ذلك أن خصامي مع تلك المرأة بدأ منذ زمن بعيد. بدأ منذ عرفتُ الصحراء ووجدتُ في الصحراء تلك الجنيّة التي ترافقنا أينما حللنا، وتجاورنا أينما نزلنا. أدهشني أن يحتمل الأب وجودها إلى جوارنا وهو الذي لا يستطيع أن يحتمل حتى وجود أمّي إلى جواره. ولم أعلم أن تلك المرأة الخفيّة تمت له بصلة قرابة من جهة الأم إلاّ فيما بعد؛ فقيل أن قرينها خرج يوماً في سفر إلى برّ بعيد، فابتلعه البرّ البعيد ولم يعد إلى الأبد، فانتظرته حتى فقدت الأمل، ففتشت عن الأقارب، ولم تجد غير أبي الذي احتملها إجلالاً للناموس الذي أوصى برعاية ذوي القربى، فشدّت الرحال معنا، ونصبت خباءها إلى جوارنا أينما حطّت بنا الرحال. لا يحضرني الآن سبب عدائي لتلك المخلوقة الشقية، وأغلب الظنّ أنه عداوة من ذلك الجنس الخفيّ الذي لا سبب له. ويبدو أن عدم وجود السبب لم يزده إلاّ جنوناً حتى بلغ الأسماع وتندّرت به الألسن، فرددت النساء في محافلهن اليومية تلك الروايات التي سرقها سلطان النسيان من عقلي الهشّ، ولم أكن لأستطيع استعادتها الآن أمام مولاي لو لم أستعرها من ألسنة أهل القبيلة كما استعار الرواة أخبار الملاحم والبطولات من ألسنة القبائل، وكما استعار أصحاب الحكمة بقايا الناموس الضائع من ألسنة القبائل. ما أن جاء اليومِ الذي تحررت فيه من سلطان النسيان حتى سمعت القبيلة تردد بلسان ضاحك كيف أثرت حنق الأرملة المسكينة يوم تجسّست على أمرها الذي تخفيه بين فخذتيها. قالوا أنها اعتادت أن تنتصب فوق موقد النار ما أن يخبو اللهب لكي تتدفأ في ليالي الشتاء على عادة كلّ النساء، فانكفأت على وجهي حتى جاور أرة الموقد في الغمضة التي سحبت فيها أثوابها الفضفاضة إلى أعلى خوفاً عليها من النار. وكان يمكن أن يمضي الأمر بسلام لو لم أفضح نفسي بتلك

الضحكة الخبيثة التي انطلقت من صدري ساعتها فنبّهت الأرملة إلى حيلتي. تلوّن وجهها بالسواد كما اعتاد أن يتلوّن كلما خنقها الغيظ، ونهرتني بصوت منكر بدّله الاستنكار، وتناولتْ مسعر النار لتهوي به على رأسي، ولكني قفزت خارج الخباء في ومضة، فطاردتني. قيل أنها ركضت ورائي في مطاردة مضحكة حتى دخلت بيتنا. فهل كانت تلك الواقعة بداية العداء؟ لا أعلم. ولكن أهل الفضول في القبيلة تحدثوا عن واقعة أخرى. واقعة لا أدري عما إذا كان زمنها قد سبق الواقعة الأولى أم تلاَ. قالوا أن الأرملة الشقية التي فقدت قرينها لا بد أن تبحث عن دمية أخرى تتسلّى بها، فوقع اختيارها على الطير. كانت تدفع كراء جزيلاً لرعاة البرّ البعيد مقابل أن يأتوها بطيور تلك السلالات النادرة التي تعبر الصحراء في مواسم قرع النوق. تنزع ريش أجنحتها، وتشدّها إلى ركائز الخباء بخيط أو حبل، وتطعمها حبًا وديداناً وفتات الطعام، وتتسكّع بها لتسرح في العراء مشدودة إلى الحبال، ولا تتعب من معاندتها وترويضها حتى تستسلم المخلوقات المسكينة وتركن إليها كما يركن الصغار إلى حضن الأم. وإذا كان النسيان قد اختلس من رأسي كنوزاً كثيرة فإنه لم يأخذ من رأسي مرأى تلك المرأة وهي تحتضن الزنابيل والقفف والشباك التي يتزاحم فيها الطير من كل الأجناس والأحجام والألوان في الأوان الذي يأذن فيه الخفاء بالعبور، ويحين ميعاد شدّ الأحمال على ظهور الدواب تأهباً لمواصلة الأسفار. بلغ شغفها بالطير، وعنايتها بقبيلة السماء حدًا أنساها القرين الفقيد، بل وأنساها فقدان الأبناء، فصارت لها عشيرة الطير زوجا وأهلاً وأبناء وأقرباء. وبرغم أن أحداً لم يسئ بها الظنّ إلى حد اتهامها بأنها لم تسع لتربية الطير إلاّ لغاية الانتفاع بلحم الطير أو بيضه، إلاّ أن الأقدار كما يبدو هي التي قادتني كي أكشف جشعها

وأفضح نواياها. فقد قادتني شقاوتي لملاحظة الطيور الشهيّة خفية، وتجسست على الزوايا التي تجثم فيها هذه المخلوقات لتضع كنوزها كما تجسست يوماً على الكنز الشهي الذي تخفيه الأرملة بين فخذيها البيضاوين. لم أكتفِ بمراقبة كنوز الطير وحسب، ولكني تسللت إلى زوايا الخباء في عتمات الغروب، ومددت يدي لأستولي على نصيبي من البيض. دأبت على عملي زمناً. ولكن الجنيّة ما لبثت أن ضبطتني في إحدى الامسيات فنازعتني واشتكتني إلى الأم. يومها قلت ما يجب أن يقال. يومها استعرت لساناً ليس لساني وقلت للمرأة في حضرة الأم: «هل أخذتُ بيضك أم بيض الطير؟ كيف تستنكرين أن آخذ حاجة لم يحتجّ عليّ أخذها صاحب الحاجة؟» أضحكت الحجّة الأم، وتبدّدت غضبة المرأة فانسحبت. ولكن الخصام ما لبث أن اشتعل بيننا بعدها بزمن قصير فاحتكمت إلى الحجارة. كنت أمطرها بهذه الهبة النفيسة التي لا أعلم كيف كان بإمكان الصغار أن يدافعوا عن أنفسهم لو لم يضعها الخفاء في أياديهم. اعتدت أن أرميها بالحجارة حتى تولول وتستغيث وتهرب للاختباء في خبائها. وفي يوم قرر محفل النساء (الذي يروق له أن يجتمع في أحد البيوت في الضحى الذي يعقب خروج الرجال إلى الخلوات والمراعي) أن يضع حدّاً للخصام بيننا فاستدعيت للمثول بين أيديهن. كنّ يتحلقن حول المواقد. يعددن لأنفسهن طعاماً، ويطرحن أمامهن شراباً وثماراً وأجباناً وقطع لحم مجفف. قدمن لي قطعة خبز وحبات تمر لرفع الكلفة ووأد الحياء. تناولت العطية ولكن الخجل منعني من الأكل برغم الجوع، فاحتفظت بالهبة في قبضتي. بدأت أكبرهن سنّاً، وأكثرهن شبهاً بعرافات قبائل الأدغال. قالت إن معشر النساء قرّرن أن يكنّ واسطة بيني وبين جارتي لوضع حدّ للخصومة. سكتت الساحرة

فتبادل المجلس بسمات خفيّة، ماكرة لم أفهم لها سبباً. تناولت قطعة جبن من الطبق وألقت بها في فمها الخالي من الأسنان. عادت تتكلم. قالت أن القبائل قد جربت أن العداوة إذا لم يُدرك لها السبب، فلا بد أن يكون العشق سببها. العشق وحده يروق له أن يتنكّر في قناع الضدّ، ويخرج للملأ بلثام الكراهة، فاحترس! تضاحكت النسوة، وشددن ألحفتهن الكئيبة على وجوههن، ففتشت بين الوجوه عنها حتى وقع بصري على وجه الأم. كانت تبتسم أيضاً، ولكن ابتسامتها كانت ابتسامة أخرى. ابتسامة قرأت فيها ايماء آخر. هل هو اعتذار؟ أم حنان؟ أم تحذير من شرك؟ كانت ابتسامة الأم تختلف عن بسمات نساء المحفل. كانت ابتسامة الأم ابتسامة أمّ. ليس صعباً، يا مولاي، على المخلوق أن يميِّز بين بسمة الأغيار وبسمة الأم حتى لو كان رضيعاً يرقد في قماط المهد. بعد قليل أكملت ساحرة الأدغال مكيدتها قائلة أن موهبة المرأة في اكتشاف الخفايا أكبر من موهبة الرجل، لهذا السبب اكتشفت الأرملة الكنز منذ زمن، ولكنها أخفت عن معشوقها الأمر إرضاء لسلطان الكبرياء كما يليق بملّة النساء. أضافت بعد وهلة تقول أن المرأة تسكت على العشق استكباراً، ولكن العشق سرّ لا يختلف عن الأسرار الأخرى التي لا تصبر المرأة على السكوت عليها طويلاً، فأخبرت المجلس، فرأينا أن نجمعكما كما تُجمع المرأة التي تريد أن تكون فراشاً لرجل يريد أن يكون لها لباساً. طأطأت حياء، ولكن عرافة الأجيال سألتني بصرامة: «هل تقبل أن تصير لجارتك لباساً؟ هل تريد أن تكون للأرملة قريناً؟» ساد صمت. الصمت لم يدم طويلاً، لأن مارداً تكلم في صدري، واستبدل قلبي بقلب مخلوق آخر من ملل الجنّ، فرفعت رأسي إلى الجنيّة التي تولّت استجوابي وقلت ببرود العقلاء: «نعم. قبلت أن أصير لجارتي لباساً». عم

السكون. لا أدري بما تغامزت الماكرات في الزوايا لأني لم أستطلع الوجوه. ولكن ردّي كان صارماً عندما دعتني الكاهنة أن أحدّد ميعاد القران. قلت بتصميم لم أتوقع أن أسمعه من عضلة لساني: «الآن...». فوجئ الجمع. فوجئت كاهنة الدهور أيضاً. ولكنها ابتلعت دهشتها بدهاء الكاهنات، وخاطبتني بلسان لا أثر فيه لنغمة الهزل: «ألا تدري يا شقيّ أن النساء كالجنّ حرم مخيف؟ ألا تدري أن عليك أن تتغسّل وترتدي الأثواب الزرقاء وتذهب إلى السِحرة كي يطوقوا عنقك بالتمائم قبل أن تدخل على الحَرَم؟» أجبت بنفس التصميم: «أدري. سأذهب لأتغسل وأرتدي الثياب الزرقاء وأتقلد التمائمِ الآن...». كنت أرتجف، وأسفح العرق، وأحترق بالحمى، ولم أتحرّر من المسّ حتى عندما ارتفعت الزغاريد، وانفجر المجلس بالضحك وتعليقات الاستحسان.

ويبدو أن طقوس ذلك اليوم لم تخفف من العداء القديم، بل ضاعفت الارتياب، وحوّلت الخصام المبهم إلى رغبة متبادلة في الانتقام، فكنت انعتها بالسعلاة كلما وقع عليها بصري، وانحني على الأرض لألتقط الحجارة، وكانت تكتئب كلما رأتني، وتنحني على الأرض لتهدهد الأرض تشاؤماً واستجارة بالأرض من شرور أهل الأرض. لم يكن العداء المتبادل مع الأرملة، يا مولاي، هو السبب الوحيد الذي أجبر الأبوين على رفقتي في ذلك المساء، ولكن تعلقي بالأم كان سبباً أكبر. وبرغم أن توأمي البائس أحق بالاستيلاء على الأم (لأنه يصغرني بظهيرة كاملة)، إلاّ أني زحزحته وقمت بالاستيلاء على موقعه بالقوّة. كنت أنام بجوارها، وأتلحف بأثوابها، وأمسك بذيل جلبابها وأطاردها عندما تذهب لزيارة الجارات، أو تمضي لحلب المعز، أو للتسكع في الوديان المجاورة بحثاً عن الترفاس، أو حتى في الآونة التي تتسلل فيها ليلاً لقضاء حاجتها

في العراء. لم أكن أكتفي بالتعلق بذيل أثوابها أو مطاردتها أينما ذهبت وحسب، ولكني كنت أهتف باسمها كما يهتف السحرة بالتعاويذ على رؤوس المسكونين بقبائل الجنّ: «تامولي. تامولي. تامولي...» هذه هي تميمتي التي أردّدها في الأوقات التي أريد أن أستشيرها في أمر، أو إذا أردت أن أخبرها بأمر، أو إذا أردتها أن تقضي لي حاجة. ولكنها لم تكن تستجيب للنداء في أغلب الأحيان، مما يجرح كبريائي، ويدفعني للتغني بالتميمة بصوت عالٍ، رتيب، ملحون. صار اسم الأم أغنيتي. أشعاري التي أتسلّى بها في وحدتي عندما أخرج لألعب في العراء المجاور، أو أنزل للبحث عن الأرانب في الوديان القريبة، أو أخرج للتفتيش عن الضباب في سفوح المرتفعات الجبلية. لم ألهج بالاسم في النهارات وحسب، ولكن في الليالي قبل أن أنام، بل وحتى بعد أن أنام، لأنها أخبرتني أني أكلت اسمها في المنام أيضاً. كانت تصاب بالمسّ أحياناً فتهجم عليّ في نوبةٍ من نوبات الجنون. تهزني من كتفي وهي تصرخ بفزع: «كفْ. كفْ. لقد أكلت إسمي. لقد محوت اسمي. ألا تدري أنك ستمحوني من الصحراء إذا محوت اسمي يا شقي؟ ألا تدري أنك ستأكلني إذا أكلت اسمي؟ ألا تدري أن الإنسان اسم، ومنْ فقدَ إسمه فقدَ جسمه وتبخرت روحه؟». تطوّق رأسها بيديها وتبكي بفجيعة حقيقية. تنوح بفجيعة إنسان رأى نبوءة الأجل في المنام فأعدّ لنفسه في اليوم التالي مأتماً وكفناً وقبراً. ولكن حتى فجيعتها لم تستطع أن تجبرني عن التخلّي عن الاسم، عن الأغنية، عن التميمة، عن الأم.

٣

فوق العرش المشيّع على ظهر الراية عاد جرمِ الفضاء يتكلّم. عاد يوشوش في صدري بالمكيدة التي أخفتها عنّي الصحراء في سكوتها. عاد الصوت المزدوج، صوت الصمت عندما يتجاوز الصمت الحدّ، فيُلهِم عشّاق السكون وعيداً، ونبوءة، ووحي الخطرِ. بلى، يا مولاي، الخطرِ. الخطر زعزعني وأصابني بالحمّى. الخطر حوّلني مارداً، ومنَّ على بدني بسلطان قدرني على قهر الوتد. هجمتِ على قطعة الحطب كالممسوس وشددت طرفها الذي يلتفّ عليه الحبل إلى أعلى. لم تتزحزح. استعنت بأسناني كي أفكّ رباط المسد حول عنق الوتد. نهشت الليف الوحشي بوحشية الممسوسين، ولكن الرباط كان أقوى، وغوص الوتد في الأرض كان أعمق. ساعتها سمعت نبوءة السماء تنزل الأرض. ساعتها سمعت الخطر يدب في الصحراء على قدمين. ساعتها سمعت المكيدة تكتمل، لأن

الأم أطلقت، وراء بنيان الضريح، حشرجة أفظع. حشرجة، أو غمغمة، أو أنيناً. كان صوتاً فاجعاً. كان يا مولاي، صوتاً من تلك الأصوات التي تطلقها بعض المخلوقات الصحراوية عندما تُلزم بالتخلّي عن حياة الصحراء والانتقال لأوطان الخفاء قهراً. كان صوتاً اختلط فيه الوجع، والدهشة، والجنون. لا أدري كم غمضة استمر الصوت في تلك الليلة. ولكن ما أدريه حقّاً هو أن الأنين رنّ في رأسي، أو في قلبي، أو في دمي، وأصبح جزءا مني إلى الأبد، إلى اليوم، إلى هذه الساعة التي أتحدّث فيها بين يدي مولاي بعد أن بلغت من العمر عتيّاً. انطبع الصوت في ذاكرتي كما تنطبع لحون الشجن في قلوب العشاق وأهل الوجد، فاستجبت له بلا إرادة، ساعتها، بأنين مضاد. لا أذكر الآن كم استمرّ أنيني المضاد، صوتي المضاد، ولكني لا أنسى أني تحررت في تلك الغمضة من القيد. أغلب الظنّ أن الحجر، قريني القديم، هو الذي هبّ إلى نجدتي. قريني القديم ألهمني بالخلاص. قريني القديم ذكرني كيف كانت الأم تتخذه وسيلتها لتحرير الجداء من أسر الليل خوفاً على ضروع أمهاتهم من نهم تلك المخلوقات الشقية. لم أتذكر الحيلة فحسب، ولكني تذكرت، في ومضة، الطريقة أيضاً. شرعت أهوي على الوتد من هذا الجانب، من ذاك الجانب، من كل الأجناب، حتى تخلخل وتضعضع. نزعته بيسر فجرجرت الحبل المشدود إلى قدمي وزحفت. زحفت لأني لم أقدر علي الوقوف على قدميّ. الصوت المميت استنزف مني كل القوى، فزحفت. نهشت الحجارة بأسنانها المنصوبة إلى أعلى كالأنياب في أفواه الوحوش، ولكني لم أحسّ الوجع، ولم أبالِ بالدّم. بلغت المنعطف، أو اسمح لي أن أعترف بأني لا أعرف كيف بلغت المنعطف، ولا كيف أدركت المكان الذي هجع فيه القربان. قبل أن أنحني على الجسد المطروح عند حضيض

الضريح، تحت ضياء الكوكب المعلّق فوق الكائنات، رأيت عند جناح الضريح الآخر شبحاً يواجه الإله القديم ويوليني ظهره. كان يشهق بصوت مكتوم ويطلق حشرجة أيضاً. حشرجة لا تختلف كثيراً عن الصوت المنكر الذي سمعته من حنجرة الضحية منذ قليل. وبرغم أني لم أبصر الشبح إلاّ لمحاً، (لأن العماء الذي غيبني عن الصحراء كلها، لأن الحمّى التي غيّبتني حتى عن نفسي، لم تمكّني من التمعّن في الأشياء) إلاّ أن النسيان تعمّد أن يهبني تلك اللمحة فانحفرت في رأسي دون أن أدرك سرّ سخاء النسيان الذي عوّدنا بالبخل حتى صار بين الكائنات سلطان البخل. ولكن ...ولكن مهلاً، مهلاً يا مولاي. يجب أن أعترف بأن سلطان البخل منّ عليّ بإيماء آخر كاد يفوتني أن أحدّثك عنه. إيماء سبق وقوفي على القربان. سبق خشوع الشبح عند أعتاب الضريح. إيماء يرجع، بالعهد، إلى لحظة الوصول إلى المنعطف. استعدت من مولانا النسيان هذا الإيماء لأني لم أستطع أن أستعيد ما تلا اطلالتي من الركن. لم أستعد أحداث الزمان الذي أعقب الإيماء، لأن النسيان لم يشأ أن يثبّت في قلبي إلاّ الشأن الذي حدث عند بلوغي جرم الأضحية. فهل كان الإيماء أمراً جرى به الزمان حقّاً، أم أنه لم يكن سوى رؤيا، أو وهم، أو أضغاث أحلام في رأسي صبي محموم؟ هل يريد مولاي أن أريه ما رأيته في القبس؟ رأيت في القبس مدية تنتصب إلى أعلى في كفّ الجلاّد، فتتغسل بضياء القمر، وتلتمع في النور بإغواء خفيّ. على لسانها تومض خيوط دم طازج، حارّ، متخثّر، فزّ للتوّ من نحر الضحيّة، فجرى إلى الأسفل ليروي الأرض، وفاض على لسان النصل لا ليروي حدّ السكين، ولكن ليتحمّم في ضوء القمر، ليلثم يد الإله الممدودة في خيوط الضوء، ليعرف، بشفاعة الكوكب المعلق بين السماء والصحراء، طريقاً

إلى السماء. لأن سبيل الدّم الذي يفيض من نحور القرابين يختلف عن الدماء التي لم تستنزف تلبية لوعد، أو استجابة لنذر، أو وفاء بعهد. دم القربان يضيع إذا لم يشقّ لنفسه طريقاً إلى السماء. دم قربان تلك الليلة أبي، أيضاً، إلاّ أن يسبح في غمر القمر، ويأخذ سبيله إلى السماء. فهل كان الأمر رؤيا، أم وهم، أم أضغاث أحلام في رأس صبي محموم؟ أنا لا أنكر امتناني للنسيان الذي أجاد عليّ بشرر تلك الليلة، رغم أني لا أستطيع أن ادّعي فهم معناه، ولا أعطي لنفسي الحقّ في تأويل الرؤيا الموجعة، ولكن إحسان النسيان لا ينسى، لأن التميمة التي زرع طلسمها في قلبي صارت لي عزاء خالداً، في عزلتي الخالدة. فهل يشك مولاي، بعد هذا، في سخاء سلطان البخلاء؟ هل يشكّك مولانا بعد هذا، في حسن نوايا صاحبنا النسيان؟ فليكن مولاي على يقين أن تلك العطيّة لم تكن الإحسان الوحيد الذي تلقيته من هذا الإله، وسوف أحدّث مولاي بعد قليل عن إحسان آخر أعظم شأناً، لأنه انتشلني من براثن الخفاء، واخفاني في مملكته الخفية حتى زال خطر الزوال، فأعادني إلى صحراء الأحياء لأحيا، ولولا تلك البطولة لما استطعت أن أتربّع الآن بين يدي مولاي وخلّي لأسِرّ له بأمرٍ سكتُّ عنه كل هذا الزمان.

أخبرتُ كيف بلغت الجسد، ولكن هل أخبرتُ أن الجسد كان ما يزال ينتفض عندما لامست الجسد؟ بلى. بلى. كان يرتجف رجفاً خفيفاً، رتيباً، غامضاً. رجف خبرته في الأنعام التي كان ينحرها أبي. رجف لا يؤلم الجسد الذي يرتجف، ولكنه يؤلم الجسد الذي يتفرّج. الجسد الذي نحر تحصّن بالزوال، تحصّن من الألم بالوطن الذي لا وجود فيه للألم، وترك الآلام للجلاّد الذي كان علّة الآلام. الجسد ركن إلى التسليم وهمد، ولكنه لوّح بالرعشة، كما لوّح قبلها بشهقة

النزع الأخير، علامة على الخلاص الأبدي من الآلام. مددت يداً ترتجف بالحمى والوجل والجنون لأتحسّس الجسد. لم أرتم عليه. لم أنتحب. لم أطلق صوت نواح. مرّرتُ راحتي على الجسد كلّه كأني أغسّله تمهيداً للفه في ثنايا الكفن. جررت يدي على القدمين المستديرتين (اللتين كنّا نتندّر دائماً باستدارتهما ونصفهما من باب الدعابة بجراء حنظل)، المتشققتين، الدافئتين الراجفتين ذلك الرجف الخفيف، المبهم، الذي لا يكاد يدرك. جررت الكف إلى أعلى، إلى أعلى، فوق ثنايا الأثواب، فوق الجلباب الرمادي، فوق اللحاف الأسود، فوق المنكب، ثم إلى أسفل، إلى أسفل، فوق الجيد، فوق الشقّ الذي شطر الجيد إلى نصفين، فتدفّق الدم كسولاً، رجراجاً، ساخناً، غامضاً. دفعت الكف فغاصت في السائل المتخثر، اللزج، الدافئ، كمياه الينابيع الجبلية. دسست اليد في الشقّ. فأحسست كيف يفزّ السائل من الأوردة، ويغمر كفّي، يتحايل على أصابعي، ويفلت لينزل الأرض. حاولت أن أسدّ الشرايين لأمنع النزيف. تحسست الفتحات، سددت بأطراف أصابعي الجراح الخفيّة، ولكن هيهات. فزّ السائل بعناد أقوى، وغمر الدم يدي بسخاء أكبر، فهجمت على النحر بكلتا يديّ. أطبقت باليدين على النحر، وجاهدت لأعيد التحام الشقين الفظيعين، ففزّ الدم إلى أعلى ليغمر وجهي كلّه، وأطلق الجسد شخيراً مفاجئاً استجاب له الجسد برجّة عنيفة زعزعت بدني أيضاً. ولكن البدن همد، وسكن، واستسلم مرّة أخرى. مات فيه حتى الرجف المجهول، الرتيب، فرأيت، ساعتها، في المقلة تعبيراً لن أنساه أبداً. هل هو تسليم؟ هل هو لامبالاة؟ هل هو سخرية؟ هل هو مزيج من كلّ هذا؟ تعبير لا يختلف عن الإيماء الذي نستلهمه من شعاف السلاسل الجبلية. هل حاولت يوماً أن تفهم ما تقوله

قمم الجبال في عزلتها يا مولاي؟ تعبير لا يختلف عن إيماء السماء العارية الأبديّة، المعتزلة. هل حاولتَ يوماً أن تقرأ أشعار السماوات في صمتها الخالد يا مولاي؟ تعبير لا يختلف عن كلام الأقمار في الليالي الصيفية. هل حاولتَ يوماً أن تفك طلسم الكلم في لسان أقمار الليالي الصيفية يا مولاي؟ أعترف يا مولاي أني لم أحتمل الألق الذي طفا على المقلة، فتكلمت بذلك اللسان الذي لا ينتمي لأهلِ الخلاء، ولا علاقة له بأبناء الأرض، برغم أني عاندت طويلاً، طويلاً. الرمز في العين غلبني، فانطلق لساني لأول مرّة. كررت التميمة بلا عقل. استجرت من الرمز بالرمز. تحصنت من المجهول بإسم صار أيضاً من نصيب المجهول: «تامولي. تامولي. تامولي...» رددت أغنيتي، تعويذتي، لحني الأبدي، وانتظرت أن أسمع الاحتجاج: «لقد محوت إسمي. أنت أكلت اسمي. لماذا تريد أن تأكلني يا شقي؟». انتظرت أن أسمع قمعاً صار، أيضاً، جزءا من التميمة، ولكنّ الصمت ألقى في أذني النبأ الفاجع. السكون أخبرني بالحقّ، بالمكيدة، فأدركت أن تميمتي بطلت، ولحني ابتلعه الفراغ، كما ابتلع الكائن الذي كنت معه كُلاّ واحداً، جسماً واحداً، روحاً واحدة، منذ فتحت على الخلاء عيناً، فوجدته إلى جواري، وجدت نفسي فيه، كما وجدته في نفسي. أدركت أني لن أتلقى على ندائي جواباً بعد اليوم. أدركت أني لن أسمع على لحني ردّاً إلى الأبد، فاشتدّت الحمّى، وتزعزعت أركان الصحراء، وغاب القمر من رحاب السماء، فتدخّل النسيان. أجل يا مولاي. هرع السلطان لنجدتي مرة أخرى. اختطفني من براثن التنين، ولو لم يهرع لنجدتي النسيان، ويأخذني إلى منافي مملكته الخفية، فأيّ سوء كان سيلحقني؟

٤

بلغني، يا مولاي، من أهل الرواية أن القبيلة أقبلت على خباء الأمّ كما اعتادت أن تهرع إلى أخبية أهل المضارب الذين حلّ بهم بلاء. هرعوا إلى الخباء في جموع جليلة لأنّهم لم يروا فرقاً في يوم من الأيام بين الجدب الذي يصيب الصحراء، وبين الجدب الذي يصيب امرأة الصحراء. بل رأوا دائماً في جدب الأنثى بلاء أشدّ من جدب الخلاء، لأن جدب الخلاء يبيد الأنعام، وقد تفلت القبائل بالفرار إلى الواحات أو إلى صحارٍ أخرى، قبل أن يتمادى السوء إلى ذلك الحدّ الذي يهدّد فيه رقاب الأنام. أمّا جدب المرأة فإنه بلاء يقفز إلى رقبة الخلق رأساً، ويدرك خناق القبائل، ليهدّد السلالة الصحراوية كلّها بالزوال والفناء. لهذا السبب هرعوا إلى بيت المرأة التي أشيع بأنها ابتليت. أقبلوا ليملأوا جوف الخباء، وينتشروا في العراء المحيط، ويلتثموا في حلقات مهيبة، تتشبّث بالسكوت،

وتنكبّ على حبيبات الحصباء لتبني رموزاً ودروباً وحصوناً وعلامات؛ تهمهم بالأنين المجهول، وتتوجّع بآهات كآهات الممسوسين، أو العشّاق، أو الشعراء، أوِ أهل الحنين. ولكن جموع القوم لا تمكث طويلاً. تنسحب زُمَر لتخلي المكان لزمرٍ أخرى، تغيب في عتمات المساء كوكبة، فتظهر، من يمّ الظلمات، كوكبة أخرى؛ فلا تختلف الكوكبة عن الكوكبة الأخرى إلاّ بالوجوم، أو السكوت، أو جلال الخطو، أو الوجعِ المكتومِ الذي ينطلق من حناجر القوم ملحوناً، كئيباً، فاجعاً، شبيهاً بغناء الجنيات في كهوف «تادرارت» أو «مساك صَطَّفَتْ»، أو مغاور الجبال الزرق في صحراء «تينغرت». تنتظر صفوف أخرى مجيء الظلمات، يستقرّ البدر في العلياء، أو تتكلم الأنواء بلسان الإيماء، فيأتيِ دور الرواة والشعراء. تتحلّق النسوة في العراء، ويلتئم الشبّان والصبيان والفرسان في دائرة الجوار. يروي أهل الخبر السير بالكلم الملحون. يسردون نبأ الجدب، وكفاح السلف لإنقاذ حبّات البذار من التلف، وينوحون بأشعار عن الزمان الذي يعمّ فيه البلاء دهوراً، فيحترق العشب، ويبيد جذرِ العشب، وتهجم جيوش النمل كجند الجن لتستولي على حبّ البذور. تجرّه إلى دهاليزها السفلية في صفوف كصفوف الغزاة، ولا تكتفي بإخفائه في سرداب الهاوية والظلمات لتتقوّت عليه أزمنة الجدب والبيات الشتوي، ولكن مردة الجنّ لا يهنأ لهم بال، لأنهم جرّبوا أن البذر مارد آخر، مارد لا يختلف عن الحيّة كثيراً، لأنه لا يموت إلاّ إذا حزرت رأسه عن جسده، فيتكأكأ جند الجن على كنز البذار في الأسافل ليقطعوا سلالته، وينزعوا من صلبه طلسم السرّ الذي يجعله يفزّ وينبت ويطلع لعاعه ما أن يشم رائحة المطر حتى لو دسّوه في أبعد الأعماق. لهذه العلّة اهتدى كهنة الملّة إلى الحيلة التي أبادت أكثر بذار النبت نفعاً

وسحراً، فانقطع ترياق أفظع العلل من مملكة الصحراء. أوصي كهنة الملّة المعادية (التي تتنكّر في أجرام النمل) أن تقضم حبّة البذار إلى نصفين، لأن الجرم المشطور إلى نصفين يستطيع أن يصير قوتاً، يستطيع أن يهب جرماً آخر سرّاً إسمه الحياة، في وقت يكون فيه قد فقد مبدأ الحياة، فيصير، بذلك، الجثمان الوحيد، الميّت الوحيد الذي يحيي وهو في عداد الأموات. ولكن إرادة الحياة في البذار كثيراً ما كذّبت نبوءات كهنة الملّة الشقيّة، فطلع لعاع حبات سلالات نبت ترفض أن تموت، فابتدع لها اللئام الذين لا تخفى عنهم خافية حيلة أدهى: أمروا بتجزئة حبة الكنز إلى أقسام أربعة، فانكشف الطلسم، وافتضح السرّ، وهلكت حبات الكنوز المكابرة. هذا سرّ عداء السلف لسلالة الجنّ التي تتنكّر في جيوش النمل (يضيف الشعراء). الجنّ في حربه مع السلالة الصحراوية أباد نباتاً كثيراً كان للأولين ترياقاً لأشرس الأمراض، فوقع فريسة للأوبئة والعلل وخفي الأسقام. الاعداء أبادوا بهذا الفعل اللئيم أقواماً وأمماً وسلالات، ولا زالوا يبيدون الملّة الصحراوية إلى اليوم، فغدت الكائنات الفظيعة التي تتخفّى في أبدان هوام النمل شرّاً لا تفيد في دفعه إلاّ تمائم السحرة أو وصايا الأولين. وكان مقدّراً أن تجري في الوديان سيول كثيرة، ويغيب تحت حجارة الأضرحة قوم كثيرون، قبل أن يعرف الأخيار أن سرّ الإنسان في الصحراء من سرّ نبات الصحراء، وكل سلالة تنقطع في عشيرة النبات لا بد أن تستجيب السلالة القرينة التي تقابلها في عشيرة الإنس. ولا يولد الإنسان من جوف أمّه الصحراء إذا لم يسبقه ميلاد لعاع نبات كان له سرّاً وقريناً خفيّاً. ولم لم يكن الجدب هو اللعنة التي استنصر بها أهل الخفاء لتدبير مكيدتهم لإبادة أهل الخلاء لما انقطعت من الصحراء القبائل، ولما صارت الصحراء صحراء.

تجرّ المغنيات الوتر المزموم على الوتر المزموم فتتوجّع الصحراء كلّها بالنواح الفاجع، وتنطلق من الصدور أنّات الوجع والعشق والحنين. يرثي القوم في مدخل الجدباء لعنة الجدب طويلاً، وينتهون في المأتم إلى يقين يقول إن بذرة نبيلة قد انقطعت من وطن الصحراء إلى الأبد، وما رفض خروج الجنين من بطن الأنثى الصحراوية إلاّ فأل السوء الذي يسبق البليّة.

٥

ولكنّ القبائل، يا مولاي، تدري أن الأجنّة ليست سوى أخلاط دم وسوائل ومخاط، ولهذا تعلّموا أن يستدرجوا الأخلاط التي تتمنّع بالأخلاط التي تقابلها في ملل النبات. ولا أرى يا مولاي أنّك تستطيع أن تمنع نفسك من الابتسام إذا رأيت أولئك الحذّاق الذين يسمّيهم القوم عطارين وسحرة وأرباب دهاء، وهم يتنقلون في الخلوات، يفتّشون عن أحقر نبتة في هذا الركن، أو ينتزعون لعاعاً يتحصّن بقطعة حجر، أو يركعون في أوحال الطين ليتشمّموا عليقاً شائكاً يراه الأغيار أشواكاً أقدر على الإيذاء من أنصال السيوف، أو يغيبون في ادغال الشجيرات الصحراوية الصارمة ليستولوا في أصولها على أعشاب تشبه سيور الجلد أكثر مما تشبه أوراق النباتات، أو يلتجئون إلى السفوح الجبليّة ليتفقدوا شقوق الصخور، وصلد الجلاميد بحرص طلاّب الكنوز المعدنية، ولا يرجعون من

القمم الوحشية إلاّ إذا ملأوا العُبَّ أكواماً شاحبة لها مرونة أعشاش الطير، أو عروقاً يابسة، أو جذوراً كئيبة تبدو في أعين كلّ من يجهل سرّ النبات كسور أغصان مستقطعة من أشجار الحوْل الماضي، أو مجرّد أعواد أو شظايا من سيقان الحطب.

يعودون بكنوزهم إلى البيوت ليجدّوا في صنعِ الأخلاط. يتمتمون بالتمائم التي تتحدث عن العهد بين الأجنة في عشائر الخلق، والبذار في سلالات النبات. يختارون من الكنوز أجناساً ليطبخوها في القدور. يلقون في القدور حبيبات خفية وجذور يبسٍ قديم يحسبه البلهاء حصباء أو خرزاً أو قطع طين. يتلون في سحب الأبخرة بوصايا ورثوها عن اسلافهم الأوّلين دون أن تتوقف أيديهم عن العبث بالكتلة الكئيبة التي ترجرج في الأوعية وتوشوش في القدور. ويختارون أجناساً أخرى للإعداد بطريقة أخرى. يتركونها في العراءِ لتجفّ، ثم يسحقونها بين ألواح الحجارة كما يسحِقُ الحبّ بين ضلفتي الرحى. يمزجون مساحيق الأجناس بقدْرٍ واحتراس ولهفة يعبّرون عنها بتمتمات التمائم، ووشوشات مبهمة لها سحر الشعر، ولكن في مفرداتها غموض الأشعار أيضاً. أمّا الجنس الثالث فهو أعشاب لها حجم شجيرات العليق، وخشونة الأحراش الشوكية، يتركها الدهاة في زوايا الأخبية زمناً طويلاً، فتنفث في البيوت عبيراً غامضاً، حاداً، مثيراً للدوار والغثيان، إلى أن يأتي اليوم الذي تجمع فيه الأعشاب في صرْر، وتدس في الأمتعة بعيداً حتى لا تقع في أيدي الأطفال أو الجهّال، أو أصحاب نوايا السوء الذين يستخدمونها أسحاراً للاستيلاء على قلوب معشوقاتهم، أو في أيدي أصحاب النوايا الأسوأ الذين يستعملونها سموماً للقضاء على اعدائهم.

ينتهي الدهاة من عملهمٍ فيخرجون ليهيموا في الخلاء بقامات مرفوعة إلى السماء. لا يفتشون، بعيونهم، في الحضيض كما اعتادوا أن يفعلوا بالأمس، بل ويحدجون أرض الأمس بكبرياء أو حتى استهزاء، وكأن هؤلاء اللؤماء لم ينتموا إلى الملّة التي انكبّت، بالأمس، على التراب، تفتّش في كل ركن بنهم أهل الظمأ، كأن هؤلاء ليسوا هم مَنْ طأطأ بالأمس في انكسار، ودسّ الرؤوس الملفوفة بالأقنعة حتى كادوا أن تعفر جباههم بالطين والغبار والأوحال. يخرج القوم اليوم إلى العراء برؤوس مشيّعة صوب الوطن الأبعد، يستبدلون وشوشات التمائم الخفيّة بلحون أشعار شجيّة. في هذا اليوم يتغنّى أصحاب الأخلاط بسيرة الكائن الذي وجد نفسه على قيد أنملة من لغز سمّوه حياة يوم تمخضت عشبة المجهول وولدت في أرض الصحراء بذرة. تململت بذرة المجهول في بطن الطين، تململ الجنين في جوف الصحراء، فارتسمت في الآفاق النبوءة التي اختطّت في جوف الأنثى رسماً، رمزاً، علامة، صارت لبذرة السرّ خلاً، توأماً، قريناً. طلع رأس البذرة من الأرض لعاعاً، فاستجاب القرين في جوف الأنثى باستهلال الميلاد. غدا سرّ النبات، منذ ذلك التاريخ، سرّ الإنسان، فأسرّت الأم للأم بوجوب إتمام مراسم العهد. سكبت أم الإنسان حليب الرضاعة فوق عشبة النبوءة، فما كان من الأم الكبرى، من الأرض السخيّة، إلاّ أن جادت بكنوزها، وأخرجت في النبت ثماراً شهيّة. تسلّى إبن الإنسان ببهاء الثمار طويلاً، ومتّع بصره، قبل أن يمد يده ليأكل. أكل الإنسان من ثمار العشب فقام العهد القديم. أقسم ابن السلالة الصحراوية ألا يميت في حياته نبتاً، ووعد النبت ألاّ يترك إبن السلالة الصحراوية يموت جوعاً ما ظلّ في الصحراء حيّاً.

٦

قضت الوفود الليل كلّه وهي تتوعد أعداء الخفاء بالقصاص، لأن قبيلة الجنّ التي تتنكّر في أبدان النمل فتتت النواة، وقضت على البذرة، فقطعت الجنين من بطن الأمّ.

ولكن الأمّ التي ملّت أخلاط الدهاة، ويئست من تمائم الأسحار، ثابرت على الخروج إلى الخلوات التي تشقّها القوافل طلباً لكهنة الأغراب (الذين اعتادوا أن يدبّوا في الصحراء بلا غاية في رفقة أهل التجارات الذاهبين إلى الشمال، أو العائدين إلى الجنوب؛ القادمين من أوطان الغرب، أو الميممين صوب الشرق) استجابة ليقين قديم يقول أن الدّاء الذي أعجز دهاة القبيلة لا بدّ أن يكون داء مجهولاً، وترياق الدّاء المجهول لا يحمله إلاّ عابر مجهول.

ترصّدت قبائل العبور طويلاً قبل أن تهتدي إلى كاهن خفيّ، يتنكّر في أسمال أهل السبيل، يلفّ قطعة زرقاء فوق

اللثام الشاحب، ويلوي حول خاصرته لثاماً مخطّطاً آخر، صار له علامة، كما كانت له قطعة الحطب التي يستخدمها كذراع أيمن، علامة أخرى. كان يطوف المفاوز الفاجعة وحيداً، لا يحمل زاداً ولا متاعاً، لا يتخذ في أسفاره بعيراً، ولا يمتطي دابةً، ولا يرافق خلقاً، يتلبّس بشرة لها لون النحاس، يخفي في قلبه كنزه، ويرنو إلى الخلاء بعين اللامبالاة.

حاولت الأم أن تقنعه بالنزول في بيتها ضيفاً، ولكنه تعلّل بضرورة الإنطلاق ليلاً، ففتحت له قلبها، وحدّثته بالسرّ. رسم بالحطبة المستعارة من الطِلح حشداً من العلامات الغامضة لم تميز منها إلاّ رموز الربّة «تانْيت» بأركانها الثلاث. في مقلتيه لم تر، أيضاً، ظلاً لنبوءة، ولا إيماء بإلهام: كانتا باردتين، لامباليتين، خاويتين. كساد العينين في عرف أهل النبوءة، دائماً، فأل سوء، لأنه كثيراً ما دلّ على الإدعاء وخواء البال، فوسوست المسكينة، وعضّت نواجذها ارتياباً.

ولكن الوساوس تبدّدت ما أن تكلّم الداهية. روى لها سيرة صغيرة لم يخلُ الإيماء فيها من العُسْر. قال أن الوليد عندما حان ميعادَ خروجه الأوّل تلقّى من الأمّ وصيّة. قالت له أن الصحراء وطن قاسٍ يقتصّ من المعاندين بالتيه، ولا عاصم من هذا الدّاء إلاّ ترياق إسمه الوصيّة، فأيّاك (حذّرت الأم) أن تنحني في السبيل لتلتقط الحبال المنمنمة بالزخارف لأن أكثر الحيّات سمّاً تتخفّى في الأجسام التي تتراءى حبالاً؛ وإيّاك أن تقترب من التيوس ليلاً، لأن الوحوش تتلبّس جلودها لتفتك بالبلهاء؛ وإيّاك أن تحادث مسافراً عند حلول الغسق، لأن أشرار الجنّ يروق لها أن تتبدّى في ثياب العابرين الأبديين لتهلك الغافلين والجاهلين بحيل الكائنات الصحراوية؛ واحترس أن تنسى إسمك، لأن الإسم لك طلسم، إذا اشتدّ بك البلاء فإنه التميمة الوحيدة التي تستطيع أن تعيدك إلى الوراء، واعلم أن

لا خير في عابرٍ لا يستطيع أن يعود إلى الوراء، فاحترس، ثم احترس!

ولكن النسيان هرع لملاقاة الوليد ما أن وضع قدمه على السبيل، واستسلم لإغواء السبيل، في مغريات السبيل: في اليوم الأوّل انحنى على اللقية، فلدغته حيّة، في اليوم الثاني داعب تيساً فصرعه الوحش بوحشيّة، وفي اليوم الثالث هرع لملاقاة عابرٍ بعد حلول الغسق، فتلقى صفعة الجنّ التي أصابته بالمسّ والحمّى زمناً طويلاً. ولكن جراح الصحراء ليس أسوأ ما في الصحراء، وبلايا الأيام ليست أرذل ما يصيب به النسيان. في جعبة النسيان، دائماً، يندسّ القصاص الأردأ: التّيه! فقد نسي المسكين إسمه في المسافة التالية، كما نسي وصايا الأمّ في بداية الرحلة، فأضاع الشقيّ الطريق، واستحال عليه أن يهتدي إلى سراط يعيده إلى الوراء. انتظرته الأمّ طويلاً، وعندما زاد الانتظار عن حدّه، أدركت أن الوليد نسي الوصيّة، وأضاع في الدرب إسمه. أدركت بروح الأم الصحراوية التي لا تعوّل على الأوهام أنها أضاعت وليدها إلى الأبد، لأنها تعرف أن التّيه الأبدي قدَر كل مهاجر أضاع في السبيل إسمه.

سكت العابر زمناً. شيّع إلى الفراغ عينين فارغتين. قال بنبرة حزن: «ما كان يجب أن ينسى الشقيّ إسمه. أضاع وليد الصحراء ناموس الصحراء لأنه نسي ما لا يجب أن ينسى، نسي الطلسم الوحيد، فصار الضياع في عنقه لعنة خالدة منذ ذلك اليوم». تفحّصته الأم بارتياب. وشوشت بعد تردّد طويل: «ولكني لم أفهم الأمثولة في قول مولاي!». حرث عابر المجهول طين العراء ليثبّت بحطبته اليمنى رمزاً جديداً. قال بنفس اللامبالاة: «ألا ترى مولاتي أن الشقيّ ضاع فأضاعنا معه لأنه استسلم لزخرف الخلاء، ولم يكلّف نفسه عناء تذكّر طلسم يعرف أنه لن يذكّره به أحد؟ ألا ترى مولاتي أن ضياعنا بدأ يوم أضاع الشقيّ الناموس الذي تعتقد

القبائل أنه مخطوط في رقع من جلد الجاموس البريّ؟ ألا يتسقّط الظامئون إلى النبوءة الأنباء من أفواه الأنبياء الكذبة؟ ألم تركض مولاتي في الخلاء، وتمسك بتلابيب الأغراب وتتوسّل أخباراً كما يتوسل الشحاذ الإحسان من أصحاب الإحسان؟ ألا ترى مولاتي أن أحداً لا يستطيع أن ينبئ أحداً بالخبر اليقين؟ ألا ترى مولاتي أن كلّ منّا يستطيع أن يتباهى بحمل النبوءة طالما أخلص للوصيّة الأولى وانتزع من غول النسيان اسمه؟ أم أن مولاتي تريد أن تنحاز للفريق الذي يرفض أن يعترف لنفسه بالامتياز، ويفضّل أن يضع أمره بيد كهنة الكذب؟». كانت الأم ترتجف وتكافح بحثاً عن وميض، عن أمل، عن حياة، في عيني الجليس الميتتين. همست بوجل أهل اليأس: «ولكن أين أستطيع أن أجد اسمي؟». رفع الداهية حطبته اليمنى إلى أعلى، وأشار في العتمة إلى شعفة الضريح المهيب الذي ينتصب في الرقعة الشمالية الغربية كرابية حقيقية. عضّت لسانها دهشةً، ولم تستطع أن تقمع في نفسها السؤال: «الضريح؟». فأجاب الجليس بلسان البرود: «الأضرحة للأسلاف مرجع، لأنهم الملّة الوحيدة التي تستطيع أن تعيد لنا الإسم المفقود. الأضرحة وحدها تستطيع أن تعيدنا إلى قلوبنا، وتملأ أفئدتنا بالناموس المفقود. وكلما ازداد كوم الحجارة حجماً، كلما ازداد اليقين بقدرة السلف على إنباء الأجيال. فلتنطلق مولاتي، ولتتوسّد أعتاب كهنة قد يُكَذِّبون، ولكنهم لا يَكذِبون».

يُروَى أن الأمّ انطلقت إلى البيت، وعادت إلى المسافر بصرّة من الفطائر والتمور والأجبان والخبز المجفّف، فتمنّع زائر المجهول طويلاً قبل أن يتنازل ويستسلم لإلحاحها. ولكن الرعاة وجدوا الصرّة معلّقة في عرف شجرة طلح بعد يومين، ملفوفة في رقعة جلديّة حُفرت عليها برموز الأبجدية القديمة عبارة تقول: «من حمل في عبّه زاداً، لم يحمل في قلبه نبوءة».

٧

ـ هل يصلح الحيوان للإنسان قرباناً؟

ـ لا أفهم لسان مولاي.

ـ الإنسان، كالغيث، سرّ السماء وكنز الأرض، فكيف نطمع في نيله بثمنٍ بخس؟

ـ هيهات أن أفهم لغة مولاي!

ـ بدماء الحيوان نستخرج من الأرض ماء، أو نتقرّب إلى السماوات لتنزل على الصحراء غيثاً، أو نستجير بالخفاء من مكيدة، ولكننا لا يجب أن نطمع في نيل الإنسان بدماء الأنعام.

ـ حتى لو كان القربان قطيعاً يا مولاي!

ـ حتى لو كان القربان قطعاناً.

ـ هل تجرؤ مملوكة مولاي أن تسأل مولاها أيّ القرابين أصلح لنيل الإنسان؟

ـ الإنسان!

ـ الإنسان؟!

ـ لا قربان للفوز بالإنسان إلاّ الإنسان!

ـ مولاي!

ـ لا يولد في الخلاء إنسان إن لم يُخلِ له المكان إنسان.

ـ ها أنا أسمع في لسان مولاي توريات الأحاجي.

ـ لا بدّ أن يختفي المخلوق كي يخلي السبيل لميلاد المخلوق.

ـ هيهات أن أفهم لغة مولاي!

ـ الناموس أقرّ الميزان منذ الأزل تجنّباً للخلل.

ـ يعلم مولاي أن لا خدم بيميني ولا إماء، فمن أين لي بإنسان أنحره على ضريح مولاي قرباناً؟

ـ يكفي دائماً أن يمتلك الإنسان نفسه.

ـ ماذا يريد مولاي أن يقول؟

ـ امتلاك النفس هو الإمتلاك الحقّ.

ـ ماذا يريد مولاي أن يقول؟

ـ مَنْ لم يمتلك نفسه لم يمتلك شيئاً.

ـ يخيّل لي أني سمعت هذا قبل اليوم.

ـ ... ونفس الإنسان هي قربان الإنسان.

ـ مولاي!

ـ كاذب كلّ من قدّم للخفاء قرباناً غير نفسه.

ـ مولاي!

ـ يستطيع الإنسان أن يخدع الخلق، يستطيع الإنسان أن يخدع نفسه، ولكنه لا يستطيع أن يخدع الخفاء.

ـ هل يريد مولاي ...

ـ كل مخلوق يحمل في القلب قربانه، كما يحمل في الذاكرة إسمه، ولن يستطيع أن يسمّي نفسه إنساناً إلاّ في اليوم الذي يكتشف في صدره الحاجة لتقديم نفسه قرباناً.

ـ ولكن ما نفع أن يفوز الإنسان بالإنسان إذا كان سيخسر في الملحمة رأسه؟
ـ الإنسان لا يدخل الملحمة ليكسب. الإنسان لا يدخل الملحمة إلاّ ليخسر.
ـ هل يرى مولاي في الأمر من أوّله خسارة؟
ـ لا يولد الإنسان إلاّ ليخسر. لا بدّ أن يخسر الإنسان رأسه في الملحمة كي يستردّ رأسه.
ـ ولكن ألا يرى مولاي أني لن أستطيع أن أنال الوليد من بطني إذا قدمت له الرأس قرباناً؟
ـ الناموس داهية. الناموس الذي علّم الدهاة الدهاء وأمهل السابقين أمداً قبل أن يخلوا السبيل للاحقين هو الذي قضى بأن ترضع الأم الوليد حليباً من ثديها الى حين.
ـ عن أيّ حين يتحدّث مولاي؟
ـ ماذا يضير الحين أو ينفع الحين، طال أمد الحين، أو قصر أمد الحين؟
ـ ثَمّ سرّ يشدّنا الى الملحمة، يا مولاي، برغم مرارتها، فلا نجد للخلاص منه حيلة.
ـ الحين حين دائماً. الحين حين حتى لو امتدّ في الزمان دهراً، لأن الدهر، أيضاً، لا شيء إذا قيس بمقياس الأبد.
ـ نحن مخلوقات لا تعلم شيئاً عن الأبد. نحن، يا مولاي، مخلوقات وجدت نفسها تتشبث بقشّة الحين كما يتشبّث الغريق بعود الطلح عندما يجرفه السيل، وها هو مولاي يريد أن يُفقدني حتى القشّة.
ـ لا وجود للقشّة التي يقبض عليها باليدين، إذا لم يجد الإنسان في نفسه الجذع الذي يحميه من الوهم الذي اعتصمت به يداه.
ـ ما أقسى هذا!

ـ قساوة تأتي بالخلاص أهون من قشة الوهم ، لأن القصاص يحيي ، والزور يميت . فهل تريدين الموت أم تنشدين الحياة؟

ـ هل لمولاي أن يوضح . .

ـ حياة الأنثى بلا ذرية بهتان ، ونيل الوليد للأنثى حياة حتى لو دفعت الحياة له قرباناً .

ـ هل لي أن أعلم شيئاً عن المهلة؟

ـ العهد يقضي بأن يمهل صاحب العهد الى حين .

ـ هل لي أن أعلم شيئاً عن الحين؟

ـ الحين دائماً حين ، طالت الأمود أم قصرت به الأمود .

ـ غمضة العين ، يا مولاي ، دهر لإنسان حكم عليه الدهر بالتهلكة .

ـ الناموس أمهل الأمّ أن تنجب الجنين ، وترضع الوليد ، وتربّي الذريّة إلى أن ترتفع فوق الأرض أشباراً لتدبّ على قدمين .

ـ الغمضة ، يا مولاي ، في عين صاحب التهلكة دهر . .

ـ . . إلى أن تدبّ السلالة على قدمين .

ـ الغمضة . .

ـ إلى أن تدب السلالة على قدمين .

٨

يروون، يا مولاي، أن الجدباء (كما أطلقت الخشارة على الشقيّة) نحرت قطيعها كلّه عند قدم الضريح في الزمان الذي أعقب اجتماعها إلى عابر السبيل، ولكنّها لم تفز بالرؤيا إلاّ بعد حياة قاسية عانت فيها من أوجاع المخاض الكاذب، كما عانت من استهزاءات الخلق من حبلها المزعوم.

توسّدت حجارة الضريح ليالٍ استجابةً لنبوءة الكاهن، ولكن صاحب الضريح لم يظهر أبداً. ولا أحد عرف يقيناً سرّ قربانها السخيّ؛ فقيل أنّها شمّرت على الساعدين، وغسلت يديها بدماء قطعان كانت حصيلة كدّ القرين لعشرات السنين تلبية لنداء سمعته سمع الأذن، وادّعى فريق آخر أنه كان نزولاً عند مشورة أحد البلهاء، وأكّد فريق ثالث أن فعلها الأحمق لم يكن تلبية لنداء، ولا تنفيذاً لمشورة، ولكنه جنون امرأة أعماها اليأس في نيل السلالة، فاستلّت المدية لا لتنحر الأنعام قرباناً،

ولكن لتميت وتبيد انتقاماً، وحذّر هؤلاء من العاقبة، فقالوا أن امرأة تشمّر على ساعديها لتنحر أنعاماً، لن تتردّد وفي أن تشمّر على ساعديها لتنحر أناماً في جنون المرّة القادمة.

ومهما قيل فإن الزمان الذي سبق الرؤيا وأعقب قربان الأنعام هو الذي أتى للجدباء بالحمل الكاذب. فقد بدأت المسكينة تتوحّم، وتنزل قيعان الوديان الكبرى لتفتّش على قطع الطين الناصع الذي اعتادت نساء القبائل التهامه بنهم كلّما تحرّكت في بطونهن الأجنّة. واضطرت في أيام أُخر أن تشتريه من الرعاة مقايضةً بحبّات التمر وأقراص الجبن المجفف حتى أيقنت القبيلة كلّها بأن العقبة قد تزحزحت، وقلب الخفاء قد رقّ وقرّر أن يبدّل الأمر، فخسف النملة اللئيمة التي سرقت البذرة وأخفتها بعيداً حتى لا يبلغ تخومها المطر، فتنتعش قرائن البطون، وتنمو في الأحشاء الأجنّة. أقبلت القرينات على خباء الجدباء للتهنئة، وضربن حول القرينة طوقاً بأردا فهن قبل أن تنطلق ألسنتهن الخبيثة بأسئلة الفضول. كُنّ يعبّرن عن الغبطة بالألسن، ولكن صاحبة البلاء التي رأت في عيونهن الشماتة يوماً كانت تقرأ الحسد والغيرة وسوء النوايا في أصواتهن في ذلك اليوم أيضاً. أمد الحَبَل استمرّ، وصرخة الاستهلال لم تُسمع، والوليد المنتظر لم يرفس الجوف ليتحرّر من أسر الجوف، فلم تجد صاحبة البلوى مفرّاً من الالتجاء إلى كاهنة قديمة تخلّت عن الجوسسة على ملكوت الخفاء، واكتفت بالتجسّس على أسرار الأبدان بسبب علّة غامضة نزعت من رأسها الرؤيا كما نزعت من عينيها الرؤية. حدّقت الداهية في الفراغ بعينيها الفارغتين المستورتين بغشاء البياض، ثمّ تسلّلت لتتفقد بطنها بيدين نحيلتين مفتولتين بعروق تبدو، من فرط بروزها، كحبكة متقنة من حبال المسد. تحسّست الجوف المنفوش براحة اليد في البدء. تحسّست الانتفاخ من الجانب

الأيمن دون أن تكف عن التسكّع في الفراغ بالحدقتين الخاويتين. تابعت رحلتها بالأصابع. تابعت الرحلة بجمع كفّ كانت له الأصابع قرون استشعار. تابعت الزحف الى أعلى. تكتسح راحة الكفّ ما تدركه الأصابع. تلتقم اليد ما تغنمه الأنامل. دبّت على الجسد باليسر الذي تنساب به على الرمل الحيّة. تغتنم الراحة ما تنهبه الأنامل. تتباطأ حيناً وتتقدّم حيناً. تجوس فوق الجلدة بأشدّ احتراس. تتنقل بدأب حميم، ولكنها لا تخدش ولا تطعن ولا تدوس. مناورات الكرّ والفرّ أعادت الى رأس صاحبة البلاء صورة المغنية وهي تتأهّب للإنطلاق في المعزوفة، وهي تتسلّل بالأنامل لاستكشاف الوتر المزموم، وهي تتحسّس الآلة لتروّض الحنين، وتستعطف قبس الإلهام في المجهول، وهي تترنح وتزفر وتطلق من المقلة دمع الشجن قبل أن تتجاسر، أخيراً، وتجرّ الوتر على الوتر لتتوجّع الصحراء بصوت الأنين. أنامل الداهية تتأهب للعزف. أنامل الداهية تنطلق في رحلة الاستكشاف. أنامل الداهية أيضاً تزحف وتتلمس وتداعب كما يداعب العاشق نهد معشوقته البكر. أنامل الداهية أيضاً تتردّد وتحترس كما يحترس طلاّب الكمأ وهم يحفرون حول قُلاع الكنز حرصاً على قطعة الكنز. أنامل الداهية أيضاً تلهث وتروّض حنيناً مجهولاً، محموماً، يليق بكل مخلوق خرج في سفر بحثاً عن كنزه المجهول. أنامل الداهية أيضاً تعزف لحنها الغامض، وتغني، في عبورها الأبدي، أغنية شجن ووجع وحنين. أنامل الداهية تنعطف، تنحرف، تستدير مع استدارة الجوف لأنها تعلم أن لا وجود لكنز إلاّ في الجرم المستدير. أنامل الداهية تمضي، تحفر، تشقّ لنفسها سبيلاً حول دائرة الخفاء التي لم تستدر إلاّ لتخفي سرّ الخفاء. أنامل الداهية تقطع في الأسفار شوطاً بعيداً، ولكنّها في النهاية تستعير سجيّة الريح، فترجع الى مداراتها كما ترجع

الى مداراتها الريح. سكتت الأنامل ليتولى اللسان إعلان النبأ الذي أقبل به الريح: «ليس في جوفك، يا بنيّتي، إلاّ الريح». ضاقت المقلتان الفارغتان المستورتان بغشاء البياض، اختفت منهما سكينة الدهاة التي يراها الخلق باباً لكلّ نبوءة. اختفى البياض. تلاحم الجفنان. انزوت ربّة الأجساد في الركن. عادت الى ظلمات البصر وظلمات الخباء. كرّر على لسانها المجهول: «ليس في جوفكِ، يا بنيّتي، إلاّ الريح».

٩

يستطيع مولاي أن يتخيّل الفجيعة التي أنزلتها العرافة على رأس المسكينة بتلك النّبوءة الفظيعة، ولكني لا أريد أن أتوقّف عند الفجيعة حتى لا أطيل على مولاي أوّلاً، وحتّى لا أفوّت على نفسي فرصة أن أتحدّث الى مولاي عن سيرة الحجر ثانياً. فقد بلغني أن سليلة الشقاء لم تعد من الضريح، في تلك الليلة الجليلة، بالرؤيا وحدها، أو بالوعد فحسب، ولكنها عادت من رحلتها بحجر مدوّر، له حجم بيضة الحجل، داكن اللون، موسوم برموز غامضة، مشطور الى نصفين بخطّ معتم، قالت للأغيار أنّها وجدته مدسوساً في قبضتها عندما استيقظت من غفوتها، وقالت لنفسها أن الحجر عطيّة الخفاء، وعطايا الخفاء، دائماً، تمائم، والتمائم يجب أن تستقر على الصدر لتجاور القلب، فاستقطعت من جلد الغزال خيطاً دقيقاً، حبكته بعناية، وتركته مغموراً في وعاء مملوء بماء

أعشاب مجهولة كريهة الرائحة. تركت الوعاء في العراء في ليالٍ استوى فيها القمر بدراً، ثم قامت بلفّ الخيط حول بدن الحجرِ طولاً وعرضاً، فانطبعت علامة الربّة «تانيت» فوق الجرم الخفيّ، وعرضت التميمة لألسنة نار ليليّة، فجفّ الخيط، وأحكم الطوق حول الحجر. في اليوم التالي تفحّصت الخيط، فوجدته متيناً، ورأت عملها متقناً، فراق لها الأمر كثيراً، وألقت بالخيط حول عنقها، فتدلّى الحجر ليجد لنفسه مكاناً بين الأحجبة التي تستقرّ على صدرها في قلادة جلديّة سخيّة. خرجت الى القبيلة، فتلقفتها القبيلة، وأسمعتها الأغنية عن سرّ الحجر. التأمت النساء في المحفل لإحياء يوم ضاع فيه الناموس، فامتدّت يد سليلة الأغراب الى الحجر. أطبقت عليه القبضة، تحسسته برؤوس الأنامل، احتوته في راحتي اليدين، قلّبته، دحرجته بيد لتتلقفه باليد الأخرى، تنقّل بين الراحتين طويلاً، استقرّ في عشّ الراحة اليمنى، تسللت السبابة اليسرى لتتفقّد السيماء الخفية، تابعت الاشارات على الجرم، انحنى جرم المرأة فوق جرم الحجر، غاب الجرم في دغل الشعر المنهمر، دنت من الحرم بحدقتيها، لامسته بشفة عاشقة ترتجف عشقاً وحنيناً، ولكن شغف العين كان أقوى من وَلَه الشفة؛ لأن الحدقة نزّت دمعاً، والصدر تزعزع بأنين موجع. انطلق اللسان باللحن. نطقت رموز الأبجديّة المنسيّة بالصوت الملحون، وردّدت الحروف الغامضة وهي تترنّح وتتمايل في وجه الحرم القديم، فسمع المحفل غناء الجنّ، وتلقّى في اللحن الوصايا المفقودة، فلبت القلوب التي نام فيها المسّ النداء، فغنت، وترنحت، ورقصت، وأطلقت آهات الظمأ، ولم يندثر اللحن إلاّ في الوهلة التي عاد فيها لسان الرئيّة الى لغة القوم لينقل إلى صاحبة الحجر رسالة رآها في رموز الحجر.

العرّاف، أيضاً، تلهّى باللقية، وتفحّص السيماء، وتغسّل

بالنوح والأوجاع قبل أن يحقّق على المردة غلبة، ويجد الى أوطان الخفاء سبيلاً. تغنّى بالبهاء، وأكّد أن لا وجود لهذه العطيّة النفيسة خارج الأجرام المستديرة. كل روح نبيلة فهي ذات سجيّة مستديرة. الشمس والقمر، الصحراء وأنجم السماء، الخفاء ومخلوقات الخفاء، كلّها كائنات تشهد بكمال الجرم المستدير، وتنبئ بيقين يقول أن الاستدارة التي كانت قدر المخلوق الصحراوي في عبوره نحو مملكة الأبدية، هي علامة الكنوز الأرضية أيضاً. سئل صاحب الرؤيا عن اللغز فأوضح أن أضرحة الأسلاف، أيضاً، استعارت الجرم المستدير تشبّهًا بالخفاء، ومحاكاة لطريق الروح الى الوطن المفقود. قال القوم أنهم لم يشكّوا في قداسة الدائرة يوماً، كما لم يشكّكوا في قداسة أضرحة الأولين التي تشبّهت بالدائرة، ولكنهم يستنكرون أن تستعير كنوز الأرض إسماً كان حكراً على الكنوز الخافية دائماً، ثم تساءلوا: بأيّ حق، يا مولانا، ينال التّبر لقب الجرم المستدير؟ هلّلت سيماء صاحب الرؤيا بابتسام الغموض، وحدّق في وجه القوم حتى طأطأوا، ثم أعلن جهاراً أن معدن الدنس، أيضاً، جرم مستدير. لم يخفِ القوم استنكارهم، ولكن صاحب النبوءة لم يكترث. عاد يداعب بين يديه الحجر زماناً، ثم التفت الى صاحبة الحجر ليسرّ لها في أذنها بالبشارة: «كيف لا تصير كنوزاً، كيف لا تصير لقية، كيف لا تصير حياة، تلك الحجارة التي انكفأت حول نفسها، وأخفت سرّها في البدن المستدير؟». جاء دور الشاعرة لتكمل، بالأشعار، ما بدأه صاحب النبوءة عن مزايا الكائنات التي آثرت الإنكفاء: «الكلّ يدري أن السباق في ساحة الضوضاء (المسمّاة بألسنة أخرى صحراء) ليس مجبولاً بوجع الاقتناء وحسب، ولكنه مغلول بتلك اللعنة التي لا تدرك إلاّ بعد حلول الميعاد وفوات الأوان: التّيه! وكان بالإمكان تدارك

الأمر والعودة عن السبيل من منتصفه لولا بلبال السباق وإغواء الباديات. لهذا السرّ صار فقدان السرّ قدر العابر؛ لأن الشقيّ لا يكتشف الضياع إلاّ في البرزخ الذي يفضي الى حقول مزروعة بأضرحة السلف، فتغدو العودة الى الوراء أعجوبة مستحيلة لأن الحياة هي الهبة الوحيدة التي لا نستطيع أن نستعيدها مرّة أخرى إذا فقدناها مرّة واحدة. ولكن في زحمة السباق والضوضاء لم تعدم الساحة وجود الملّة التي أوتيت من علم استخدام الهبة قبل أن تؤتى الهبة نفسها، فأنكرت شرائع السباق، وتخلّت عن أسواق الساحة، وركنت الى الركن، الى الظلّ، الى الخفاء. تسترّت بالعزلة، ووجدت في عتمات الخفاء سلوى. تخلّت عن كنوز الباديات، واكتشفت في انكفائها كنوز الخافيات. أنكرت ناموس الإقتناء، وأقرّت التخلّي ناموساً. في الانزواء اطمأنت وبكت إشفاقاً على أهل التيه الذين لم يكفّوا في شقائهم عن التشدّق بالسعادة. رأوا سلالة الضياع تركض حول نفسها ركض البلهاء وأهل المسّ فلم يغب عن بالها سرّ البلبلة. أدركت منذ تلقّت قبس الإلهام أن الأجرام إذا لم تحترس، فإنها ستفقد كنوزها، ستفقد منابع النور التي تخفيها بعيداً، بعيداً، في نفسها، وكنوز النور إذا أفلتت، أو اندلقت، أو فاضت، فإنها كالسلسبيل، كالحياة، بل ككلّ ضياء، لا يستدرج، ولا يعتقل في جوف القمقم مرّة أخرى. أهل البلبلة أمّة شقية، أضاعت الفيض، فدبّت في الخلوات المغمورة بأضواء الشموس ظنّاً منها أنها تستطيع بأضواء الباديات أن تستردّ أضواء الخافيات. وهي، أيضاً، أمّة لن تستطيع أن تعرف الى الفرق سبيلاً لأن العماء أصاب فيها البصر، فاختفى عن عينيها ضوء الخافية، ولم يعد بوسعها أن ترى إلاّ ضياء البادية. ولو علمت الملّة الشقيّة سرّ الإنكفاء، لو أوتيت يوماً من علم الخفاء، ورأت ما وراء

الستور التي رأتها، دائماً، ظلمة وعتمة وخفاء، لو انفكّ الطلسم الذي ختم على بصيرتها بالسدّ، لرأت ما لا يُرى بمقلة العين، وأدركت ما لا يُدرك بالعقل، وعرفت سلوى لا تقارن بما يطلق عليه زحام الضوضاء سعادة، لأن وراء الحجب يستقرّ الوطن المجهول، الوطن النبيل، الذي صيّر الكهنة أنبياء بعطية إسمها النبوءة، وخلق من العشّاق والمريدين شعراء بهبة إسمها الإلهام».

تربّع الراعي القديم في المدخل، واقترب بحبّة الكنز إلى نار المساء، وناح بعينين دامعتين بصوت الشجن. قال أن الحجم حجم الكمأة، وانطلق يروي سيرة البروق والرعود التي تزرع السرّ في رحم الأرض لتولد في الصحراء الثمرة المجهولة. الثمرة الخفيّة التي لا تخشى جيوش الجنّ التي تتنكّر في أبدان النمل لأنها لم تولد من بذرة تخاف أن تقطعها الملّة اللئيمة، ولم تتخذ من عروق النّبت، أو جذر شجر، أصلاً تستعير منه أعجوبة الخروج، ولم تلد بذاراً تكون لها ذريّة لأنها من البذر لم تولد. ولكن الترفاس الجسم الوحيد في دنيا الخلاء الذي يتنزّل من الخفاء في شرر البرق، ويستمد أنفاسه من أغاني الرعود، لأن سليل الخفاء وحده يستطيع أن يلد نفسه من صلب الغناء، ويحتلّ لنفسه حيّزاً في جوف الخلاء. ثم مال العجوز بجسده الهزيل على الجليسة ليسرّ لها ببشارة قال أنه رآها مرسومة في الجرم: «الترفاس، يا مولاتي، كنز الضوء، وعطية المجهول الذي أبى أن يعترف للباديات لا بأبوّة ولا بأمومة لأنه جنين ليس ككلّ الأجنّة. فابشري، يا مولاتنا، بالفأل، لأن الجنين في جوفك ليس جنيناً ككلّ الأجنّة».

أخيراً أقبل حدّاد القوم ليقرأ سرّ الوسم الذي يشطر اللقية شطرين متساويين. تأمّل الرسم طويلاً جداً. تأمّله باهتمام محموم. تأمّله حتى فزّ الدمع من مقلتيه الصغيرتين المستورتين

بجفنين موسومين بشبكة من التجاعيد. دمدم صدره بالأنين أيضاً، وتحدّث عن الرسم والوسم والنمنمة وقال أن التكوين تعبير سبق رموز الأبجديّة، وكانت الاشارة المجسّمة أول حرف في الدرس الذي توارثته القبائل جيلاً بعد جيل. تكلّم عن التكوين فقال أنه لم يكن في أصله شعراً فحسب، ولكنه رمز أراد الأوائل أن يعقدوا بإيمائه القران بين السماء والأرض، فوشموا كل جدران الكهوف وصلد المغاور بأحافير الرسم طمعاً في إحلال السماء محلّ الأرض، وأملاً في رفع الصحراء لتستردّ وطنها الضائع في مملكة السماء.

تابع بسبابته مسير السيماء، وأبدى اعجابه بالانسجام في تقسيم الجرم الى شطرين متساويين بدقّة كانت دائماً مزية الأوائل، ثم انحنى على رأس الجليسة ليسرّ لها بتعويذة في صيغة سؤال: «ولكن ألم تقرأ مولاتي الإيماء في إشارة التقسيم؟ ألا ترى مولاتي أن الإنسان جرم مستدير ككل جرم خفيّ، ولكن الوسم يجعل من الجنين مخلوقاً مشطوراً الى نصفين؟ هل تستطيع مولاتي أن تشاركني تأويل هذه النبوءة؟».

١٠

انقشع الغبار، وانقطع النَّفَس، واحتضر في الفراغ الهواء، وها أنت تتثاءب يا مولاي. لم يدهشني الحال، لأن الصحراء التي ربّتني وأرضعتني وهدهدتني منذ كنت في المهد رضيعاً هي التي علمتني سرّاً كان ناموساً احتكره أصحاب الكهانة: لا يُدرك نبأ الخافية من لم يتقن قراءة العلامة البادية.

اعتكفت منذ أيام لاستنطاق الآفاق، فوقفت على تدبير الخافية في سيماء البادية، فالتقمت النبوءة قبل أن يجري بها تعاقب الليل والنهار علامةً تُقرأ في مسلك مولاي. سرحت في الخلاء الصارم المفروش بالحصباء النحاسية الذي يستوي في حضيض السلسلة الجبلية الشمالية، فأبصرتُ ألسنةً فضيةً سخيّة تتوالد في الأفق، وتتدفّق فوق الامتداد العنيد. تمور وتتمايل وتتراقص وتغمر سطح العراء في غلالات الفتنة والإغواء. تنساب شمالاً، وتتلوى حول نفسها، لتفيض إلى جهة الضدّ

بمهارة الحيّات، ومرونة السيول. تتحايل على الحجارة التي تنتصب هنا وهناك، فتغمرها حتى يختفي الجرم، ثم تنحسر بشقاوة وفجاءة، لتكتسح من جرم الحجر الحضيض، تتخلّى عن المجازفة، ترجئ اللّهو الى حين، تمتد لساناً لئيماً فتشطر قطعة الصلد الى شقّين، تشيع في الفراغ الطرف العلوي، تعبث بالشقّ، تغدق عليه من غمرها، تذيبه في يمّ سلسبيلها، تعجنه عجناً، تلوّح بالعجين إلى كل الجهات، ترميه شرقاً، ثم تستعيده بمهارة الجنّ، لترميه غرباً، تستعيده، تتلقفه بيد مصنوعة من سائل المعدن الفضّي، تلوّح بالشقّ الى أعلى، تتركه معلقاً في الفراغ، تستعيده في غمضة، تمزّق العجنة كما تُمزّق خرقة الكتّان، تخرّب القطعة كما يحطّم الصغار الدمية عندما يملّون امتلاك الدمية، عندما تمتلكهم الدمية؛ يروق لها اللعب، فتلهو قليلاً. تعيد خلق العجنة. تعيد الخلق بجنون لا يليق بالخلق. تفرّق القطع الى كل الأنحاء، تتلقفها ببراعة أهل الخفاء، تخفيها في العُب. تصنع من جرمها الشفاف ستوراً، تخفي في الستور لقياها، تعيد وليدها الى حضنها، الى جسمها، الى جوفها، لتلده من جديد، لتخرجه الى الصحراء مخلوقاً جديداً، له قامة مكابرة تعلو فوق قامة الخلاء، متوج بلثام حقيقي، يلوّح في الفراغ باليدين، ويدبّ فوق السلسبيل بقدمين حقيقيين. أراه، يا مولاي، مقبلاً نحوي، يخطو بمهل الأكابر، في أثواب الأكابر، بغموض الأكابر. يقترب. يتحرّر من أسر الغلالات الفضيّة كما يتحرّر الجدي من مخاط المعزة عقب الولادة. يقترب خطوات أخرى، فأفزّ واقفاً. أتأهب لاستقبال الضيف الجليل. أخطو. أتقدّم نحو الزائر. يقترب العابر خطوة، خطوتين، ثم يتوقّف، يتراجع، يتملّص، يتخلّص من أثواب الترف أولاً، ثم يتقلّص، ويتحلّل، ويفرّ. لا يفرّ الى الأبد، ولكن أستار الغمر تتلقفه

لتصنع له مأوى في رمش العين. تشيّد من العجنة السفلى بيتاً، ترفع النزل في الفراغ مسافة، تبني حول البيت قلعة من جسم البيت، تقيم القلعة حصناً منيعاً، فيبدو الصنيع كلّه في الخلاء الأبدي الموجع واحةً حقيقية لا تأوي صاحب الواحة وحسب، ولكنها تعد كل العابرين بالمأوى والفيء والماء والعيش الهنيء، فأندفع يا مولاي. أفرّ إلى الأمام لا جرياً وراء شبح العابر الذي زال من الخلوة ليسبقني الى الواحة، ولكن هرباً من نار الخلوة، واستجارةً بأسوار الواحة المفقودة. فهل يعتقد مولاي أن بوسع سليلٍ الجنّ الذي نسمّيه في لساننا البليد سراباً أن يطأ أرضاً لم يتخلّ عنها مولاي؟

سليل الجنّ كان للإنقضاء علامة أولى، ولكنه لم يكن، يا مولاي، العلامة الوحيدة. في الوادي الكبير وجدت علامة أخرى. نزلت السفح الوعر الذي ينحدر على القاع من جهة الغرب بحثاً عن الأعشاب والضباب، فلم أعثر بين الأحجار إلاّ على بقايا الحمّيض الهرم الذي عظمت في أسافله السيقان، وتكاثفت في شعافه فروات البذار، وغزا الذبول أوراقه، وتحوّل من عشبة شهيّة للأكل، الى نبتة خشنة من فصيلة الشجر. في السفوح السخيّة لم أجد الضباب أيضاً. فتشت الشقوق، وقلبت الصخور، وطلبت الآثار في بقع الرمل التي تختطفها أجرام الحجارة من يد مولاي لتخفيها في هذا المكان أو ذاك، فلم أعثر حتّى على الأثر. نزلت الوادي فوجدت الماء الجزيل قد فرّ من القاع، وشجيرات العليق قد تشبّث بها الشحوب، والتفت حول سيقانها دوائر الرمل، فانكفأت حول اجرامها كما تتحصّن القنافذ بأبدانها. في القيعان تيبّست ألواح الطين، وضربت الشقوق امتداد القاع، فتلوّت المربعات الى أعلى، وهامت في الفضاء كأنها تتوسّل الشموس، وتحاول إدراك فلول الماء الذي تبخّر، ولكنها يئست في منتصف

الطريق، لأن الشموس لم تستجب، ومعشوقها الماء أنكرها وتبدّد في ملكوت الفراغ، فولّت إلى الأسافل، ولكنها لم تجد ما تستجير به من قساوة الشموس غير أجسامها، فالتوت في لفافات كرقع جلدية صغيرة، فتبدّى أسفلها لعاع نبت هش ضئيل كحشائش خضراء الدمن، ينتشر تحت حقل الألواح البائسة، يستجير من الهجير بالظلال الشاحبة، ويستعير من صلد القيعان الصخرية نداوة شحيحة. رفعت رأسي الى السماء فقرأت نبوءة أخرى. وجدت فيض الأعالي، سيول اللؤم المستعارة من سيول الجنّ، تتمادى، وتتدفق لتملأ الوادي من منابعه العليا. أقبلت تتدافع كسيل حقيقي، تجرف الحجارة والروث والأوحال وأكوام القش في لسانها اللعوب. تندفع الى الأسافل بعنف وعدوان وشراهة. تجتث الأشجار وترفعها فوق هامتها علامة العنف. تقترب. أسمع الدمدمة بوضوح. اسمع الزلزلة الخفيّة. أسمع الوعد. أسمع الوعيد. يصدمني اللسان. يغمرني. يلتف كالثعبان حول قدمي. يتشبّث بأثوابي، يتعلّق بسيقاني. يتسلق قامتي، ولكنه لا يصرعني. يتركني غارقاً حتى خاصرتي ويمضي. يندفع عبر الوادي العميق. يعلو ليغمر الوادي حتى الشاطئين. يجتاز حدّ الشاطئين. يتلاحق ليتواصل في فيض يتنزّل من قرص يستقرّ في قلب السماء. ينهل من الشعاع الفضّي غمراً جديداً، يستمد دفقاً جديداً، فيتمادى، ويتصل يم السماء بيمّ الأرض، فتشتعل الصحراء باللّهب، وتبدأ مراسم حريق، تبشّر بميلاد ربّ الحريق. وإذا كان ميعاد خروج مولاي قد حلّ، فإن ميعاد خروجي قد حلّ أيضاً؛ ذلك أن مولاي يعلم أن الإنسان في هذه الصحراء لا يملك إلاّ اللسان الذي يستطيع أن يروي به سيرته؛ والإنسان الذي لا يملك إلاّ اللسان لا بد أن يروي السيرة إذا أراد أن يقدّم القربان إلى إله كمولاي امتلك، من

قديم، السِلطان على الأثر، وعلّمنا أن وجود السرّ في وجود الأثر، ومَن أراد أن يضيّع في الصحراء كائناً، محاه في الأرض، وأضاع له الأثر. وإذا كان الزمان قد وضع القيد في الجيد، وأعاد مولاي الى القمقم، فعساي أكون قد أفلحت، بسيرتي، أن أدخل إلى قلب المولى مسرّة تعصمني من الغضبةِ، وتجنّب بعائري لعنة تيه ستقطعها من الصحراء فيما لو محا المولى، بأنفاسه، لها، في الأرض، الأثر.

قَمَرُ الصَّيفْ

(أَيُور)

١

بحلول موسم الحريق تتنكّر للصحراء السماء. تتعرّى من أثواب السحاب، لتتعمم بلفافات منسوجة من خيوط العمامة النارية التي تستقرّ في قلب الفضاء. تشتدّ استدارة القرص. تزداد اللفافة حجماً. تعظم شأناً. تخالف الناموس الذي قضى لها بخلود السيرورة، فتتلكأ، وتتباطأ، وتتوقف عن الانسياب. تختار قلب السماء لها مستقرّاً. تستعير من الاستقرار سلطاناً وطغياناً. تعدّ العدّة. تصقل أسلحتها. تفتل من الشعاعات سياط النار. تشتّت من السماوات الغيم. تحرق السحاب. لا تتساهل حتى مع الغلالات الطائشة التي تتسكع في فضاء الصحراء تائهة. تحرق الغلالات، وتقطع دابر أحقر الأبخرة التي تهشّها الأهوية الشمالية الى مجاهل المتاهة الجنوبية. تغزو المسافات. تحتل الأركان. تحكم سيطرتها على متاهة الأعالي. تخلق من السماء صحراء. تتلذّذ بالعراء. بعريّ العراء. يروق لها الانقطاع

في العراء. في الاعتزال. تخلق من الصحراء فناء، قبل أن تلتفت الى الأسافل وتتولّى أمر المتاهة الأخرى. يروق لها الصنيع. يروق لها الفراغ، فتتلذّذ بالفراغ، بالعراء، بعري العراء، برقعة الفناء، بالإنقطاع في رقعة الفناء؛ لأنّها، ككلّ الأرباب، تأبى أن تستقرّ في أوطان لا يكون فيها الفناء مقرّاً؛ لأنها، ككل الآلهة، لا تركن إلاّ الى المكان الذي فرّ منه المكان؛ لأنها، ككل الأجرام المكابرة التي تستحي من جرمها وترى فيه عورة، لا تطمئن إلاّ إلى الملكوت الذي صار فيه الفناء مملكة. تحمّم المستقرّ بنيران بدن النار. تغتسل بالنار، تغسل أجواء المحيط بالنار. تتنفّس النار. تتنفس سماواتها النار. ثم تبدأ التأهب لتتفرّغ لتطهير الشق السفلي من وطنها الناري الكبير. تجلو العدّة جيداً. تتزحزح قليلاً. لا تتزحزح لاستكمال سفر أقرّه لها ناموس الأقدار يوماً، ولكنها تتزحزح لتقترب من الوطن السفلي، لتتفقد الوطن السفلي، لتتولّى أمر الوطن السفلي. تقترب مسافة جسيمة. تغمر الكائنات بأنفاسها. تسكب في الساحة العارية فيضها. يتدفق لعابها على البادية سراباً ولهباً وحريقاً. يقترن الشقّ السفلي بالشّق العلوي. يلتئم الطرفان فتكتمل الدائرة. يزاوج اللّهب بين فناء الأعالي وفناء الأسافل ليبدع الدائرة الخفية، الدائرة السريّة. الدائرة المقدسة التي كانت أصلاً لكل الأكوان. تبدأ طقوس القران الموجع. قران المنفى. قران الفناء الذي ينكر قران الأمس عندما امتزج غيث الشقّ الأعلى بتراب الشقّ الأسفل، فأنجبا بقرانهما وليداً مدهشاً إسمه الحياة. قران اليوم قران من طينة أخرى. قران وُجد ليعيد الأمر الى النصاب، ويرجع الوضع إلى أصله، إلى ضدّه، إلى غيبته، إلى ظلّه، لإخفائه في ذلك المكان الذي انقطع منه المكان وسمّته الخلائق خفاء.

يفرّ الماء من المستنقعات التي خلّفتها سيول فصل الشتاء الذي

انقضى. تتيبّس القيعان، ويتكوّر الطين. تتبخّر الرطوبات من كرات العلقم التي تتمدّد في الأحاضيض بحثاً عن ملاذ تستجير به من طغيان الحريق. تتبدّد حبّات الكمأ التي أطلّت برأسها في رحلة الخروج، فتزامن ميعاد الخروج مع طقس الجنون المقدّس، فذبلت، وتهرّأت، وتهاوت، واندثرت، لتدفع ثمن الخروج. العشب ذاب منذ الجولة الأولى، والعلّيق فقد النداوة بعد مقاومة لم تدم طويلاً، ولم يستطع الوقوف في وجه الغزو سوى الطلح والرتم. انتصب الطلح في قامات عزلاء، معتزلة، على مساحات مغمورة بالسراب، متباعدة في المسافة، مستعيناً بمخزون عريق من مياه سخيّة نالها من غمر العهد القديم. أمّا الرتم فاحتمى بقيعان الوديان الكبرى، وانكفأ حول نفسه، ليحمي كنوزاً استمدّها من جذور الأسافل، ملتفّاً في جبّة من عيدانه اليابسة، مستعيذاً من بئس المصير بوشوشات من التمائم والألغاز والأشعار.

حتى الحجارة لم تسلم من السوء في غزوة الجنون.

في الامتداد المفتوح، المشيّع على أكف المرتفعات، تنتشر أنواع الحجارة. في رقع تسود حصباء كحبيبات الخرز، تستعير كل الألوان، تتخللها قطع حجرية تقلّ حجماً عن حجارة رقع أخرى؛ تستلقي على الأرض في وضع أفقي، تتوسّد أرضاً طينيّة حمراء اللون، تصير في مساحات أخرى أكثر عتمة وكآبة، وقد يشتدّ بها الاكتئاب فتبدو، بعد مسافة قليلة، بلون رمادي أقرب الى السواد. وفي رقع أخرى تستبدّ بالأرض حجارة أكبر حجماً وأكثر خشونة، مطروحة على تربة أكثر صرامة واستواء. وتكاد تتحوّل الواحا حجرية حقيقية في مسافات تالية، وتكتسب لوناً رمادياً أصيلاً. في رقع الفصيلة الثالثة تنتصب الأحجار إلى أعلى كحقول من شواهد نصّبتها أيدٍ مجهولة، ترتفع بتحدّ، تعترض السابلة، وتسلخ

أخفاف الإبل، وتدمي حوافر الغزلان، ولكن في أصلها يروق للطير أن يشيّد تلك الأعشاش البهيّة التي يبنيها من حبّات الحصى وقطع الحجارة، كما اتخذت الضباب من أنصابها مرداة تهتدي بها إلى جحورها التي كثيراً ما ضلّت السبيل إليها بسبب استواء العراء ووجل الخطر. تمتد يد الرعاة وأهل الفضول لتلتقط حصاة، أو قطعة حجر أكبر حجماً، أو حجراً مطروحاً، أو نصباً قائماً، فتكتشف الفروق في لون الأجرامٍ. الوجه المفتوح على جنون القران مختوم بسيماء العتمة دوماً، في حين يحتفظ الجزء المغمور باللون الأصليّ الذي يتراوح بين بياضٍ ناصع، وبياضٍ مشوّش عفّرته التربة الطينية الحمراء بوسم الرقاد الطويل.

الحجارة أيضاً، يا مولاي أيور، لا تنجو، فتصير حطباً للوليمة؛ لأننا ورثنا عن السلف الوصية التي تقول أن شمس الصيف تأكل الحجارة إذا لم تجد ما تأكله في الصحراء.

٢

ولكن الناموس الآخر، الخفيّ، الذي صيّر المصائر، وأقرّ ناموساً لكل ناموس (المسمّى في لغة الأسحار والكهانة قدراً) يأبى، في نهاية الشوط، إلاّ أن يضع للطغيان حدّاً ولو إلى حين. الآن وحسب يدفع الخفاء تنّين الفجيعة ويزعزع أركان الصرح المشيّد بلفافات النار ليتزحزح في سيره جهة الغرب. يتلكّأ، يتمهّل، يتباطأ، ولكن الناموس يدفعه للتخلّي عن جرم المعشوق غصباً. يزحف صوب منفاه بتردّد عدبّس حرون. تغيظه الهزيمة، يستنكر الغلبة، فيستنفر زاد الحمم، ويسلّط على الجسد العاري أردية تبدو للعيون زيناً وبهاء وفتنة، ولكنها تحمل في ثناياها هولاً وأوجاعاً وتهلكة. تحتقن سحنة التنين بحمرة الغضب والانتقام والجنون. تحتقن بحمرة دمويّة، ربما حسرةً على فراق جسد لم تنفّذ فيه قصاص الإفناء، ولم تستطع أن تحيله زوالاً وعدماً يليق بمجاورة الخفاء. تنزلق

خطى، ولكنها لا تهوي الى المستقرّ في الحال أبداً. تتشبّث بركن في الفراغ السماوي الأبدي، وتتدلّى فوق الروابي الغربية المفروشة بأضرحة الأجداد، وتتوعّد معشوقتها الصحراء من هناك، وقد تحوّلت فيها فيوضات الضياء نزيفاً دموياً قانياً، فتقرأ الكاهنة المطروحة في الهاوية السفلية في الوعيد، في الإيماء الدموي، نبوءة عن قساوة القصاص في جولة الغد.

تقترب السعلاة من مصيرها مسافة، خطوة، شبراً، ثم شبراً، ثم.. شعرة، فشعرة، فشعرة، قبل أن تستسلم لقدرها وتقفز في فم الهاوية. لا تقفز قفزاً، ولكن الشهوة المحمومة التي تشدّها الى الخلف، الرغبة المجنونة التي تستبدّ بها للعودة الى الضحيّة، النهم الوحشي في أن تستكمل الطقوس وتتغسّل بدم القربان، هي التي تستبقيها، هي التي تستبطئها، فتتلكأ مرة أخرى، وتتردّد، وتحرن، كأنّها تتوسل الهاوية أن تمهلها لتملأ بصرها من المعشوقة التي أرادت أن تحيلها فناء يسهّل لها الاستيلاء عليها، امتلاكها، ضمّها إلى الممالك التي بدّدتها وذرّتها في العدم هباء، لأنها لا تجد للاستيلاء سبيلاً إلاّ بالامتلاك، ولا سبيل للامتلاك إلاّ بضم الجرم إلى مُلكها، ولا سبيل لحيازتها في مُلكها إلاّ بتجريدها من جرمها. ولكن الناموس لا يهمل، والهاوية لا تمهل. تستدرجها الهاوية باللؤم، لا تبخل بوعود السكينة، تهيئ لها في جوفها حضن أمّ، تفتح لها الأذرع ترحيباً بعودة التائه الضّال، تنسج شرك المبيت، حتى تتوارى سليلة الطغيان وراء الأفق، تحمّم الأفق بدمع من دم، إيذاناً بانتهاء شعيرة الموت، وتنبيهاً للصحراء ببدء شعيرة حياةٍ تولد في نزول الغروب.

آثار الجلاّد لا تزول بزوال الجلاّد.

آثار الجلاّد تمكث طويلاً. تسترخي القارة استرخاء الأموات. تنطرح على القفا كما تنطرح شاة القربان بعد

استنزاف النحر. تشيّع الى السماء العارية، المكابرة، اللامبالية، بصراً مشحوناً بإيماء الرجاء والفجيعة والتسليم. التسليم علامة استسلام للقضاء؛ والفجيعة شهادة من بلغ به العناء حداًّ لم يعد فيه قادراً على احتمال فنون تعذيب لا عاصم منه إلاّ زوالٍ لا يملكه حتى لو أراده؛ والرجاء إشارة استنزال لتلك الرحمة التي تستطيع أن تضع حداً للتعذيب، ولا توجد قوّة تجرؤ على المن بها غير السماء.

لامبالاة السماء تبطل الأمل، فيتحوّل الرجاء رويداً، رويداً، إلى يأس. والفجيعة التي تستعجل الزوال تصيّرها الخيبة لامبالاة. والتسليم ينقلب عقيدة وحيدة.

تهرع السماء لتغطي الجسد المسجّى بشرشفِ الليل، لأن السماء التي لا تملك الحقّ في إحياء الأموات، وُهبت الحقّ في تكفين أجساد الأموات. بدأت تنسج من خيوط العتمة الكفن الكئيب. بدأت اللملمة على مهلٍ. استعارت العهن من كل ركن. استعارت من المجهول عهناً مجبولاً بدم جلاّد زال بعد أن صيّره الناموس، أيضاً، ضحيّة. بدأت تغزل سرّها. بدأت تزيل اللبس. بدأت تطهّر الخيط المجبول بلون الدم، من الخيط المغسول بماء الحداد. توارت سيماء الجلاّد الذي زال فصار، بزواله، ضحيّة. اختفت آخر مسحة في سماء الآفاق التي تعتلي سلسلة الروابي الغربية المزروعة بأضرحة الأجداد، فطاب لربّة الغزل الغياب، وعجلت في عمل أناملها، وصفا العهن من كلّ لون دخيل. انكبّت على النسيج، فاكتحلت المفاوز سريعاً، واختطفت السلسلة الجبلية الشرقية طرف الثوب لتلفّه على رأسها عمامةً. استنكرت السلسلة الجبلية الشمالية أن تستأثر الشعاف الشرقية بثوب الخفاء، فمدّت قممها لتستقطع من الوشاح نصيباً. تلحفت بالكفنِ المقدّس لتتنكّر. استجارت بلباس الخفاء فزعاً من شبح الجلاّد، من وعيد الجلاّد، من

ذكرى عذاب الجلاّد. فرّت الأركان من الأركان. فرّت الأركان من كلّ الأركان، وتشبثت بتلابيب ثوب الإخفاء لأن النبوءة أنبأت أنه الكفن الوحيد الذي يستطيع أن يجير من القصاص؛ لأن الأركان في مملكة الصحراء، لأن الكائنات في أركان مملكة الصحراء، قد آمنت منذ الأزل أن قصاص الزوال أرحم مائة مرّة من عذاب الجلاّد. اختارت الصحراء كفن الزوال، وقبلت التضحية بحياة يتسلّط فيها الجلاّد.

اكتمل النسيج، والتف الجسد بكفن الليل. لم تكتفِ الربّة بإتقان الصنع وحسب، ولكنها جادت على الثوب من كنوزها أيضاً. نثرت فوقه من مذّخر الجوهر حُليًا صارت فوق سواد الكفن فتنةً وضوءا وزينة. ساعتها، فقط، أفلتت من المجهول بشارة أولى. هبّت من جهة الشمال نسمة. نسمة حقيقيّة. نسمة شمالية. نسمة مغسولة بنداوة لأنها نسمة شمالية. نسمة بعطر نداوة. بعبير بلل منسي. بشذى سلسبيل صيّره هول النهار حلماً لا يقارن إلاّ بحنين المعتزلة المجهول الى معشوق لا وجود له إلاّ في وطن المجهول. النسمة التي هبّت بحياء العذارى، وخفّة الفراشة، وطُهْر الصبيّة البكر، أحيت العظام وهي رميم: غنّت شجرة الرتم في قاع الوادي، وزغردت حبّات الحصباء بصوت مسموع، وهبت ذرّات الرمل لتقرع طبول الخلاص، فتلقت الكائنات السفلى الإشارة، فتململت، تنادت، وأطلقت في بيوت الأسافل نفيراً إيذاناً بحلول ميعاد الخروج. قادت جند الفئران الحملة. سارت في المقدمة. زحفت باحتراس فوق الأرض اليباب التي حرقها مارد النار بألسنة النار. شمشمت تراب الأرض طلباً للجندب الذي أيقظته النسمة الشمالية وبعثته الى الصحراء حيّاً. خروج الفئران بعث الحياة في الحيّات. تململت سليلة الخلود في جحورها، ثم انطلقت الى ساحة الكيد والضوضاء المحروقة بجحيم النهار.

سعت في الأرض طلباً للفأر، فخرج القنفذ من الحفرة، ودبّ في الأرض اليباب طلباً للحيّة.

في هذه الساعة تلوّن الفراغ الشرقي، واستعارت رؤوس السلسلة الجبلية الشرقية شعار الحميض. استعارته رويداً، رويداً. جدلته خيطاً خيطاً. لفّته فوق عمامة العتمة، فامتزج اللونان، وأبدعا، بالالتئام، لوناً ثالثاً؛ لوناً لئيماً، غامضاً، ولكنه فاتن. همد الخلاء. تصنّت الخلاء. تجسّس الخلاء على الخلاء. تجسّس الخلاء على السماء. تجسّس لا فضولاً ولا وجلاً؛ تجسّس شغفاً ولهفةً وانتظاراً لميلاد النبوءة. عمّ السكوت، فازداد السكون طغياناً وغوراً. صار للسكون، من فرط السكون، صوتاً. صوت موجع لأنه صوت الكائنات التي لا صوت لها. صوت الأبديّة التي لا صوت لها. ازداد نصيب لون الحميض في لفافة السلسلة الشرقية المكابرة، فاستكبرت، واستعلت لتتباهى. تمادى اللون فغلب الكفن الكئيب في آخر المطاف. في الأفق تولّد قبس، وطلع، من وراء الامتداد الأبدي القاسي، رأس. طرف رأس. جزء من أجزاء الرأس. جزء ملفوف في لون الحميض، مضى يقهر المعتقل، معتقل الموت والظلمات، ويبدّد العتمة والسواد، في زحف بطوليّ. مضى يطارد الفلول حتى اكتمل في دائرة قانية، جليلة، لها حجم الجلاّد الخالد وصورته واستدارته، ولكن ليس له قساوته أو وعيده، أو استكباره.

في ذلك الملكوت شهدت الصحراء ميلاد الجرم النبيل الذي أغدق على الصحراء نوراً، ولكنه حجب عن الصحراء ناراً.

فكيف لا تغنّي الكائنات، يا مولاي أيور، ابتهاجاً بميلاد ربّ يهب النور، ولكنه يحجب النار؟

فكيف تريدني، يا مولاي، أن أشرك بك أغياراً أبثّهم شجوني، وأسرّ لهم بأمري في زمن الحريق؟

٣

انقصم ظهر الشؤم. انقصم ظهر المارد الذي يتنكّر في جلد النملة قبل أن يقضم البذرة ويقصم ظهر الحبّة الى شقّين. حشرج الجان بشره فتململ في جوف الأرض إيماء ما أن ارتوت الأرض الظمأى بغيث الغوث. تململ جوف الأسافل بسرّه فلبّى القرين النداء. تململ في بطن أمّ قاست ويلات جدب أقوى من ويلات جدب قاسته قرينتها الصحراء. عانت عنف رياح أشدّ عدواناً من رياح هبّت على قرينتها الصحراء. ولكن الوعد بدّل الأمر، وها هي يد الخفاء تمتدّ لتحيي في الجوف عظاماً كانت رميماً الى وقت قريب. تمتدّ لتبعث في بطن الخواء والقحط دبيباً خفيًا، حركة غامضة، دفءا حميمًا، وسوسة مجهولة كوشوشات أنسام الشمال في أحراش الرتم. تنتبه. تستنفر كل عضلة لتتجسّس. تستجيب للنداء بوجيب القلب. تستفزّ البدن لينجب البلسم. يجود

البدن بفيضه سلسبيلاً ودماً، فتدفع الجود الجزيل الى الأوردة والعروق وأقلّ الشرايين شأناً. تتنادى خبايا البدن، وتتآلف، وتتحالف، لتدفع الفيض لإرواء حقل الجنين. تدبّ في الخلوات، أو تتنقّل بين الأخبية وهي تسرح في بسمات غموض. غموض موسوم بحزن. حزن ليس ككل الأحزان. حزن لم تألفه القبيلة في بنات القبيلة. حزن المخلوق الذي عرف البلايا طويلاً، وتجرّع مرارة اليأس مراراً، ورأى في الفرار من الخلاء خلاصاً، فأدرك سرّ الكائنات اللامبالية التي يئست واستسلمت وركنت إلى الأبدية فوجدت الى الخفاء سبيلاً. حزن المخلوق الذي هدهد في الفؤاد سراً، وعلّمته مرارة البلوى كيف يخفى عن الخلق سرّه خوفاً على السرّ من شرّ الخلق. ولكنه، برغم الصرامة، حزن نبيل، حزن نبيل لأن ربّة الحزن لم تعد في حاجة لأن تعرج على داهية الأزمان وساحرة الدهور لتستطلع لها الغيوب، لتجلب لها من المجهول الخبر اليقين. حزن نبيل لأن ربّة الحزن لم تعد تأبه لشماتة صاحبات الشماتة، ولا لإشفاق ربّات الإشفاق. حزن نبيل لأن الحرث أتى ثماراً، والحقل احتضن في المجاهل زرعاً. حزن نبيل لأن ربّة الحزن لم تقهر الجدب بالمجّان، ولكنها تعرف أنها ستدفع القربان ثمناً لتحرير بذرة كانت في قبضة الجنّ سبيّة.

حان ميعاد الحمّى فلم تستعن بالجارات، ولم تستدعِ قابلة القبيلة. خرجت برفقة الأمَة إلى الوادي لاستجلاب الحطب، فداهمها المخاض. استجارت بأروم الرتم، وتشبّثت بالطلسم المعلّق في قلاّدة الجيد. عاندت الأوجاع من قبس الفرقان حتى حلول القيلولة. استحمّ البِدن بالبلل والعصاب والحريق منذ جشأة الصبح المبكّر، ولم ينبثق من الجوف نداء البشارة إلاّ مع انتصاف النهار. علا نداء الاستهلال في الوادي. ردّت

الشطآن الى القاع الأصداء، فزغردت أنفاس الشمال في كثافة الأغصان، وغنت الميلاد بموّال الشجن.

ولكن الخروج لم يضع حدًا للوجع، والجوف لم يتحرّر من الحِمْل.

اشتدّت الحمّى، فاشتدّت القبضة على كرة الحجر. غرق البدن في البلل والرجفة والحريق، فابتعدت الصحراء من دنيا الصحراء، وسمعت في الظلمات همهمة الجنيات، ومكثت في أوطان الخفاء أزماناً، ولكنها لم تتخلَّ عن الطلسم، ولم تسترخِ القبضة على الحجر. تزعزعت الأركان، وتزحزحت السماء من وطنها في السماء، وانبثق من الجوف، مع حلول المساء، نداء آخر. عادت الصحراء الى مكمنها في الصحراء، واستقرّت السماء في وطن السماء، فسمعت أغنية الكائنات احتفاء بميلاد سرّ الكائنات. حينها فقط استرخت القبضة عن قطعة الصلد، فوجدت الأَمَة طلسماً مشطوراً إلى شقّين، مغموراً بالبلل، مشدوداً بالخيط المستقطع من جلد الغزال. تناولت الأَمَة الشقين، ورأت أن الإنشقاق ضرب الجرم في الوسم المعتم الذي رأى فيه الدهاة علامة الانقسام. حررت الأَمة الضلفتين من أسر الخيط الجلدي، وانحنت فوق الشقين لتقرأ الرموز المحفورة في باطن الضلفتين. انكفأت طوِيلاً. أطلقت أنيناً، دمدم الصدر بأصوات غامضة، وسُمع في الظلمة صوت الجنيّة وهي تنكبّ على فكّ رموز الطلسم بلسان مسموع: «قصم داهية الجنّ، المدسوس في جلد نمل السوء، ظهر البذرة نصفين ليقطع في رحمها الجنين. ولكن فات الداهية السرّ، ونسي أن البذار، كالخلق، سلالات وقبائل وأجناس. فهذا جنس ينقطع ويهلك ويزول بضربة تقصم ظهره نصفين، وذاك جنس لا ينقطع ولا يهلك ولا يزول إلاّ بضربات تقصم ظهره إلى أجزاء أربعة. أراد أهل الكيد أن

يقطعوا الحياة في رحم مولاتي بضرب البذرة الى شقين ، فأحيا الخفاء الرحم مرتين ، وأبى إلاّ أن يهبها ، بدل الجنين ، توأمين» .

٤

مكثنا مقيّدين بأربطة القماط أيّاماً سبعة. مكثنا أعزلين من الحصن، من السلاح، من الإسم. أقبل على المعقل المردة ودهاة قبائل الخفاء ليختطفونا ويستبدلونا بأبناء من سلالتهم، فارتبنا، وفزعنا، واستنجدنا بالأمّ في نوبات البكاء، فهبّ عساسنا الوحيد الى الموقد لينثر حفنة الشيح في جمر الموقد، فتفرّق شمل الجنّ. ثم استدعت الأَمَة، وأمرتها أن تزرع الأنصال الفظيعة حول الركيزة لإخافة الجند وردّ الغزاة على أعقابهم. لم تكتفِ ببناء حصن النصول حول رؤوسنا، ولكنها سحقت أعشاب الشيح بين ضلفتي الرحي، وأحكمت المسحوق في صرّتين من كتّان فاحم السواد، وشدت التعويذتين الى معصمينا بخيط نحيلٍ مستقطع من جلد الغزال. ولكن جند الجان لم تستسلم، ولم ترجع عن حصار البيت إلاّ في اليوم السابع الذي أقبلت فيه جموع النسوة، وكتم زحامهنّ أنفاسنا حتى كدنا نختنق، ورمتنا عيونهنّ بالوجع،

وَلَغَطْنَ وولْولْن وصرِخت أشبههن بالسعلاة في أذني بـ «رو . . رو . . رووو . . إِيسمنَّكْ إيبانمان(*)» ، وانحنت الأمّ فوق رأسي ، وألقت حول عنقي تميمة أخرى . علّقت في رقبتي فلْقة الطلسم الحجري الذي انشقّ في الميسم . أمّا شقّي الثاني فقد هاجمته سعلاة أخرى أقل قبحاً ، وولْولت في أذنه بالنداء القديم قبل أن تصرخ في أذنه بالتعويذة: « . . إيسمنك أفانمان»(**) . ثم هرعت إليه الأم لتطوق عنقه بفلقة الطلسم الأخرى . بهذين الحصنين ، حصن الإسم ، وحصن الطلسم ، اكتمل ، يا مولاي ، الميلاد . اكتمل ميلاد الشقّين ، وأخرجت الحبَّة من الخبء لعاعاً ، وصار بوسع الأمّ أن تخرج لقضاء الحوائج وتتركنا وديعتين بين يدي أَمَة تجد ، دائماً ، ككل الإماء ، شأناً يلهيها عنّا؛ أو تركُنَا عند قدم الركيزة وحيدين دون أن تخشى علينا من كيد «أهل الجوار» كما اعتادت أن تسمّي أبناء الخفاء تحايلاً على الإسم ، وإمعاناً في إخفاء المعنى ، واحتراساً من شرّ الاستدعاء . لم يختفِ نصل المدية الفظيع المغروس فوق رأسينا عند حضيض العمود ، كما لم نتحرّر من صرّتي الشيح في معصمينا ، كما واصلت الأم حينًا ، والأمة حيناً ، على غزونا بأبخرة الاعشاب الخبيثة الرائحة ، ولكن الكبار أطمأنوا قليلاً بعد الفوز بالإسم ، وكفّوا عن ملاحقتنا ، وضرب أطواق الحصار حول بدنينا ، وتبادلوا الوقوف فوق رأسينا لا ليهشّوا عن وجوهنا أسراب الذباب اللجوج ، ولكن ليطردوا عن بدنينا أعداء الخُبْأة ، ويحموا روحينا من كيدهم؛ لأن ناموس التمائم الذي تناقلته الأجيال ، وتوارثته القبائل ، أقرّ ضرر الخلاص من الأنصال ، ومن مساحيق الشيح ، قبل اجتياز عهد المهد ، وانتصاب الوليد في قامة تدبّ على قدمين .

هذا ، يا مولاي ، ما بلغني عن زمن المهد من الأغيار ، ولا

(*) رو . . رو . . روو . . إسمك «غياب الروح» .

(**) . . إسمك «ضوء الروح» .

أعيده الآن على مسامع مولاي ليقيني بصدق ما يردّده أغيار ينبغي أن نكون في شكّ، دائماً، مما يقولون، ولكن لأني لا أروي في سيرة المهد أمراً جديداً لم يعهده مولاي في كلّ سير المهد التي عرفها كلّ أبناء القبائل. بل ربما تعمدت أن أغفل هنا، أو أهمل هناك، لا استسلاماً لسلطان النسيان، ولكني لم أشأ أن أطيل حتى لا أثقل على مولاي. وإذا كنت قد ارتضيت أن أردّد ما ردّده ويردّده أغيار القوم عن زمان لم يصر زماني، لأن الزمان أودعه في كف النسيان رهينة، فإن الواجب يلزمني، الآن، أن أسمع مولاي رواية زمانٍ كان مفقوداً، ولم استعده من خدور النسيان إلاّ عقب التحرّر من قيود القماط، والخروج الى ساحة الضياء والضوضاء والكيد زحفاً من أسر المهد، لأني أستطيع اليوم أن أجسر فأتحدّث عن ميلادٍ لم يكن من حقّي أن أدّعيه قبل أن أستعيد ذاكرة حقّقها لي امتلاك زماني. وإذا كنت أملك الحقّ في أن أنسى، فإني لا استطيع أن أعطي لنفسي حقّ نسيان الوصيّة الأولى. لا أعرف الآن كم بلغت من الزمان بحساب السنين في ذلك اليوم (ذلك أن النسيان اللئيم استطاع أن يختلس منّي شؤوناً تلت ذلك اليوم لا أشكّ في أنها جديرة بأن تُروى) ولكنّي لم أنس سيماء الوجوم التي أخفت عنّي سيماء الأمّ، وحولّتها في لمحة إلى خلقة مقنّعة بغضون وكآبة وصرامة لم أعهدها إلاّ في وجوه سعالٍ وجنيات وساحرات طلعن لي دائماً. أمسكت بمنكبي الأيمن بيدها اليسرى، وتشبثت بشقّ الطلسم بيدها اليمنى، وشرعت تشدّه في هزّات متتالية، سريعة، موجعة، وتردّد بطرف اللسان تميمة أخرى كأنّها تتوعّد: «سرّك في إسمِك، فإيّاك أن تنسى إسمك! مَنْ نسى إسمه أصابة السوء. منِ نسى إسمه مسّته يد أهل الجوار. من نسى إسمه أصابه شرّ الخلق، فاحترس! خرجت بالأمس من بطن الخفاء، وتخرج اليوم الى بطن الخلاء. حصنك في الخفاء حضن الأم، وحصنك في بطن الصحراء الإسم،

فاحترس! إذا اقشعرّ بدنك فاعلم أن عتاة الجنّ يحومون حولك فاستجر باسمك؛ وإذا استشعرت ضيقاً مجهولاً فتلك علامة كيد الخلق، فلتفظ بالإسم تنجو من الشرّ؛ وإذا خَرَجَت لك حيّة أو طلع من الوجار ذئب فاصرخ عليهما بالإسم؛ وإذا حطّ في وجهك طائر التّيه، وركض أمامك في العراء، ليسرقك منّي، ومن نفسك، ومن الصحراء، فتحصن بالاسم، وسترى أن اللئيم سيتبدّد كما يتبدّد السراب، فاحترس منذ اليوم أن تنسى، وأعلم أن النسيان عدوّك!». تخلّت عنّي لتلتفت لشقّي. كبلته بيديها، وهزته من منكبيه، ووشوشت في أذنه بالتعويذة نفسها. ولم أعلم، كما لم يعلم شقّي الشقيّ، أن الأم دسّت إسمينا في الحجرين المعلقين في رقبتينا حرصاً على تضييع الأثر، وإمعاناً في إخفاء الاسمين من كيد الخلق، إلاّ في اليوم الذي أضاع فيه «أفانمان» شقّه، فسقط فريسة المرض، ونهشه الدّاء، واحترق بدنه بالحمّى، وتناهبته الغيبوبة، ولم تجدِ لشفائه لا العقاقير ولا التمائم ولا تدابير الأم. أشرف على الهلاك، وغزا البياض مقلتيه حتى غاب السواد تماماً، واعوجّ في الوجه الحنك، وتلوّى البدن في نوبات وِجع فاجع شوّهت البدن، فيئس الأب، وأيقنت قريبة الأب والأَمَة وجلّ الجارات بحلول ميعاد عودته الى بطن الخفاء. الأم وحدها لم تيأس. الأم التي نالته سراً، وأخفته في الإسم سراً، وحدها، أدركت السّر، فاحتضنته، وهو يحتضر، وهرعت به في إحدى الليالي إلى الضريح. مكثت هناك طويلاً، ولم تعد الى الخباء إلاّ في غلس الفجر.

لم تكشف لأحد سرّ الزيارة، ولكن قريني تشافى، واستعاد العافية بعد مرور أيام قليلة، فتحدثت القبيلة عن الأعجوبة التي تستطيع أن تستعيد مخلوقاً استعاده النسيان.

لم أعرف، يا مولاي، سرّ الحجر، إلاّ في اليوم الذي قررت فيه أن اتخلّص من الحجر.

٥

البذار، يا مولاي، سرّ لا يدرك سلطانه إلاّ مَنْ فَقَد البذار. الذريّة، يا مولاي، سحر لا يعلم عمله إلاّ من أضاع الذريّة. الأبناء، يا مولاي، كالهواء الذي نظنّ أنه أحد أعمدة الحياة، ولا نكتشف أنه هو الحياة إلاّ إذا امتنع وغاب. فهل يدهشنا، بعد هذا كلّه، أن تتبدّل الجدباء وتُستبدل كما يستبدل الجنّ أبناء المهد بأبناء من سلالة الجنّ؟ تبدّلت السيماء وانقشع من الوجه الوجوم. تزعزع الحزن الأبدي، الحزن الخفيّ الذي كان للوجه علامة، وتهلّلت الملامح بألقٍ جسور، كأنّ مارداً جديداً نزل في الدمّ، وجرى في الأوردة ليعير البشرة إيماء جديداً. في المقلة أيضاً حدث انقلاب. توارى الشقاء، تبدّدت من الحدقة الهزيمة التي اعتاد الناس أن يروها في أعين الذين كُتب عليهم أن يدفنوا وهم أحياء، لتحلّ في المحجرين مقلة جديدة، تشتعل بالفطنة والوميض والفضول.

استقامت القامة بعد انحناء، وتسامت فوق الأرض لتستعيد كبرياء النساء وخطو الصبايا. استبدلت المرأة جلدها كما تستبدل الحيّة قُشارها، فأدهش التبدّل نسوة لم يجرّبن الجدب، ولم يفقدن القدرة على إنجاب الأبناء، ليتساءلن في المجالس هل هذا هو ما تسميه الأجيال سعادة؟

ولا شكّ أن دهشتهنّ ستتضاعف لو علمن شيئاً عن السّر، عن الخُبْأة، عن الوعد. لا شكّ، يا مولاي، أنهنّ لن يصدقْن عيونهنّ لو علمن أن المخلوقة التي تختال أمامهنّ بكبرياء من حقّق أعجوبة الميلاد مرّتين، هي نفسها التي نذرت نفسها للخفاء، ولم يبق لها إلاّ أن تتأهب لتلبية النداء. لن يصدّقن وهن يشهدن بسمة الغموض، بسمة الصفاء، بسمة الأجْرام المكابرة وهي تطوف فوق شفتيها، تفزّ من مقلتيها، تشعّ في وجِهها، تجري مجرى الدّم لتتسلّط علي الملامح فتتألق تألّق الغيل في فيض مولاي عندما يستدير بدراً في ليالي الحنين. لن يصدقن، لن يصدقن، يا مولاي، أن الإيماء الذي يتكلّم في المقلة أمل، ليس أملاً، ولكنه ابتهاج من استحمّ في حوض اليأس، ليس اليأس الذي ألفه الأنام، ولكنه الفناء؛ لأن من عبر الدهليز الأسفل، وحدّق في سيماء الخافية وحده يستطيع أن يمتلك مقلة تومض، وتتبسّم، و. . تحيا. لن يصدقن إذا علمن أن الإنسانة التي حققت بالأمس الأعجوبة، وقهرت عقماً لا يقهر، هي نفس المخلوقة التي تخطو اليوم في طريقها الى الضريح، تهدهد في الجوف سراً، وتذهب بقدميها لتطرح نفسها فوق حجر المذبح. لن يصدقن، يا مولاي، لأنهن لا يعرفن أن من وهب اليوم حياةً، وحده يملك الحق في أن يهب غداً الحياة؛ لأنّ من نال، بإنجاب الأبناء، حياةً هو المخلوق الوحيد الذي لم يعد في حاجة الى الحياة؛ لأن الزوال الذي وعد به الوعد يوم العهد، صار لصاحبة العهد حياةً. من أين

لهن أن يعلمن أن صاحبتهن التي تمضي إلى مصيرها تنفيذاً للوصيّة لا تقدّم نحرها قرباناً، ولكنها تهب دمها لتولد في القربان؟

اشتدّ العودان، وتَقَسَّت العظام في الشقّين، فحرت الجرمان أرض الخباء بالزحف زماناً. ثمّ انتصبا على القدمين مستعينين بعمود الركيزة زماناً آخر. ثمّ استعارا من خباة المجهول قوّة، واستمدّا من الأهوية سلطاناً، ونالا من سنا الأنجم أسراراً، قبل أن يأتي يوم تغامزا فيه بعيني الخبث تمهيداً للإنطلاق. دبّا خارج الخباء بقامتين منتصبتين، يغالبان في العيون خوفاً فيرتجفان، ويرتبكان، ويسقطان أرضاً؛ يهدهدان في القلبين سرّاً، فيفزّان، ويعاندان، وينتصبان، إلى أن انتهى بهما النزاع إلى الخلاء، إلى المسافة الخاوية التي تفتح فمها لتبتلع المسافات، وتمتد، وتتوالد، وتستدير حول نفسها لتستولي على كل الأرباع والأركان، فلا تكتفي بما غنمته من المتاهة، ولكنها تغزو الأعالي، وتلتهم الفضاء، وتتواصل في الهاوية السماوية العارية التي تتمدّد وتتوالد مستعيرة مسلك المتاهة السفلى. وقف الشقّان على حافة الهاوية في ذهول. عضّا نواجذهما لأوّل مرّة. ورأت الأمّ في مقلتيهما ما لم تره قبل ذلك اليوم أبداً. رأت الايماء الذي استعصى على عضلة اللسان، الإيماء الذي يتنزّل في أفئدة الأمهات نبوءة دون أن يدركن له خبراً. الإيماء الذي ينبئهنّ بالمصير، وينذرهن بميعاد الفراق، يوم يجيء فيه رسول يأخذ الصغار من يد الأم الصغرى ليضعهم في يد الأم الكبرى، يوم يقبل على الأرباع نذير الوداع الذي يضع حدّاً لأمومة الأمهات، وينتزع العطية ليضعها أمانةً في حضن أمّ أخرى، فلا تملك أمّهات القبائل، في يوم لقائه، إلاّ النّوح.

هالها الفقد، فألقت بنفسها عليهما لتحميهما من الغول.

احتوتهما في حضنها كأنّها تريد أن تعيدهما الى جوفها، كأنّها قرّرت أن تصيّرهما جزءا من جسمها، كأنّها قررت أن تسترجعهما دماً، فمضغةً، فنطفةً، فرسالة جاد بها سلطان الوعد. أعادتهما الى الخباء، وشدّتهما إلى عمود الركيزة بحبلين غليظين مفتولين من ألياف المسد. افترس الحبل رسغيهما أثناء عنادهما ومحاولاتهما البطولية للإفلات. كانا يجاهدان للإنطلاق، لأن النداء الذي ألقته فيهما المتاهة أقوى من حبال المسد وأكبر سلطاناً حتّى من الأصفاد وسلاسل الحديد. سال الدم من الرسغين، وحفر حبل الوحوش حول القدمين طوقين دمويين أفزعا الأَمة، واستنكرهما الأب، وأبكى الجارة التي تمت بصلة قرابة للأب. كانت الأم الصغرى ترتجف وتلعن الصحراء، وتردّد في آذان الأسيرين: «الصحراء خدعة. الصحراء أكبر خدعة. الصحراء دائماً تَعِد، ولكنها لا تفي بالوعد أبداً، لأنها. . لأنها كذبة. الصحراء ليست خدعة. الصحراء ليست تيهاً. الصحراء كذبة. كذبة. كذبة، فاحترسا!».

ولكن هيهات يا مولاي! الكذبة، يا مولاي، أيضاً تملك الحقّ في أن تأخذ حقّها. الكذبة أيضاً تملك الحقّ في أن تدلي بصوتها، وتقول للخلائق كلمتها، لأن الكذبة، أيضاً، حقيقة من حقائق هذا الميلاد الذي يسمّيه الأنام حياة. بل للكذبة سلطان أقوى من سلطان الحقّ، لأنها تنتزع حصّتها انتزاعاً، ولم تلزم يوماً بتقديم حساب، ولم تجبر يوماً على مساءلة، ولم تعد يوماً ما أخذت بالأمس، وهي القوّة الأقوى لأنها امتلكت الحقّ في أن تقول، دائماً، الكلمة الأخيرة. فكيف يفلح، يا مولاي، من يريد أن يحقّق على الكذبة غلبة؟

انتصرت الكذبة، فجرّت أبناءها خارج الخباء، فأقبل على الخباء الرسول. اختلى بالأمّ في أغلاس المساء، وأخبر أن

صاحب الوعد قدِ أوفى بالوعد، ولم يبق لصاحبة الوعد إلاّ أن تفي بالوعد. روت الأمَة (التي تخفّت في زاوية الفسطاط تتسمع على عادة الخوادم والإماء) أن الأمّ سكتت طويلاً. سكتت حتى ظنّت أنها لن تتكلّم. سكتت فتكلّم السكون بضوضاء الألف لسان. لغط الألسن هو ما ينزع من السكون وضوح الألسن. هرج الأصوات الخفيّة يحيل الكلِم بلبالاً وغمغمةً وطنيناً كطنين الذباب، لأن أهل الخلاء إذا سكتوا، فلا بد أن يتكلّم الجنّ في الصحراء. علت جعجعات أهل الخفاء طويلاً قبل أن يسكتها لسان الأمّ:

- وهل يرضي مولاي أن تفي الأم بالوعد قبل أن يستقرّ الأمر بعطيّة مولاي؟

- أخشى أن تكون هواجس مولاتي ليست من شأن مولاتي.

- الحقّ أني لم أفهم..

- الكيفية التي يستقرّ بها الأمر بعطية الخفاء، شأن من شؤون الخفاء.

- هل نسي مولاي أنه يحادث أُمّاً؟

- شأن مولاتي الأمّ ينتهي في اليوم الذي يخرج فيه الوليد رأسه من فم فسطاطك هذا.

- قلب الأم مسمّم بالوسوسة يا مولاي..

- دور الأم ينتهي في يوم الخروج ليبدأ دور أمّ أخرى.

- لا تخشى الأمّ بليّة كما تخشى يوم يجيء فيه دور الأم الأخرى.

- لا يودع الخفاء بذار الأبناء في بطن الأم، إلاّ ليضعهم يوماً في بطن أمهم الكبرى.

- ولكن الصحراء أمّ قاسية يا مولاي!

- الأمّ الحقّ هي الأم التي تقسو.

ـ ولكن الصحراءِ شَرَك يا مولايِ!
ـ الخروج أوّله شَرَك، وآخره شَرَك.
ـ ولكن الصحراء تحيك لأبنائها شباك الدسيسة يا مولاي!
ـ لا نجاة من الدسيسة. وُجد الأبناء ليقعوا في الشباك، وُلد الأبناء ليصيروا طعاماً بين فكّي الدسيسة.
ـ ولكن... ولكن الصحراء كذبة يا مولاي!
ـ كل أمر جرى به الزمان، وخرج إلى وطن الخلاء، كذبة. كلنا كذبة لا لأننا آمنّا بالخروج، ولكن لأننا صدّقنا وجود حقيقة أخرى غير الكذبة. لأننا كذّبنا الكذبة لأننا لم نصدّق أن الكذبة هي الحقيقة؛ لأننا فشلنا أن نقمع في نفوسنا حرصاً لا يريد أن يعترف للكذبة بالكلمة الأخيرة، لأنه لا يريد أن يقتنع بوجود الكذبة، بتفوّق الكذبة، بحقيقة الكذبة، وسلطان الكذبة على الحقيقة.
ـ ولكن. . ولكن ألا يرى مولاي هذا شرًّا؟
ـ لا وجود لشرّ في وطن الأكذوبة. أعجوبة الأكذوبة في قدرتها على عجن الشرّ في خبز تطعم به جياعاً لأكذوبة إسمها الحقيقة.
ـ كلام مولاي يطعم يأساً أقوى من يأس أمّ زمن جدب الأم.
ـ ناموسي ألاّ أطعم الناس الأوهام أبداً. ناموسي أن أقول ما يراه الأغيار كذباً.
ـ إذا صدق مولاي فإن كفاحي لنيل العطية كان باطلاً!
ـ جئت لأقول أن الكذبة حقّ.
ـ هل جاء مولاي ليقول أن الكذبة حقّ، أم جاء ليقول أن الحقيقة هي الكذبة؟
ـ أغيار كثيرون لن يروا في القولين فرقاً، ولكنّي أؤثر القول الأوّل.

ـ هل كان الكفاح باطلاً؟
ـ الخلق لا يكف عن الكفاح برغم الباطل لأنهم وُجدوا ليتلّهوا عن الكذبة بالكفاح.
ـ هل حان ميعاد تنزع فيه الصحراء منّي بذاراً لتذروها في الهواء هباء؟
ـ الهباء حقّ.
ـ هل ضرب الدهر بضربه، وحلّ يوم غلبة الكذبة؟
ـ للكذبة لا غالب.
ـ ولكن فلينظر مولاي: إنهما يزحفان، يتشاقان، يتبسمان، يتضاحكان. إنهما، يا مولاي، يحيان.
ـ ما تهبه الأكذوبة اليوم، تأخذه الأكذوبة غداً.
ـ إنهما حيّان.. حيّان..
ـ لا يحيا مَنْ آمن بالخروج حياةً.
ـ ألا يستطيع مولاي أن يجد حيلة تغيثهما من المصير؟
ـ الخفاء جاء بهما من الخفاء، وواجب الخفاء أن يعود بهما إلى الخفاء.
ـ هل الخفاء هو الحقّ الوحيد؟
ـ أجل. الخفاء هو الحق الوحيد.
ـ هل في نيّة مولاي أن يمهلني حيناً أبحث فيه عن حيلة تنجيهما من كيد أمّهما الصحراء؟
ـ لن أمهل مولاتي إلاّ المهلة التي تكفيها لقطع حبل المسد، لتطلق سراح أسيرين صارا للصحراء ابنين منذ زمن.
ـ هل قال مولاي كلمته الأخيرة؟
ـ الكلمة الأخيرة للأكذوبة، وكلمتي أن أخبر مولاتي أن قَدَرها أن تلبّي نداء الوعد، وتنطلق إلى حيث يجب أن تنطلق.

٦

لا أريد أن أعيد على مسمع مولاي رواية ليلة مسّ فيها الحدّ جيد الضحيّة ، وشرب نصل المدية من دم النحر ، ورأيت سنا مولاي يتلامع فوق بركة النزيف ، لا فزعاً من حشرجٍ خضت فيه بيدي ، ولكن لأن سيرة القربان كانت سرّي الذي استهللت به حديثي لقرين مولاي وقريني «آمناي» ، ولا أنوي أن أعيدها الآن ليقيني بأن القرين للقرين شقّ ثانٍ ، ولا يبخل عليه حتى بالنفس ، فكيف يبخل عليه بسرّ لم يعد سرّاً؟ ولكن ما أردت أن اتقاسمه مع مولاي هو ما جرى به الزمان تالياً ، لأن الدهر الذي ضرب من ضربه أنساني كثيراً ، فاستعنت بروايات الأَمَة حيناً ، واستعدت السيرة بألسنة أغيار القبيلة حيناً آخر فعبرت دهليز النسيان بمعونتهم ، وبلغت البرّ الذي وجدت فيه نفسي أتسكّع في الخلوات ، متشبّثاً بتلابيب توأم أكبره بعشيّة بأكملها ، لأقوده إلى هذا السبيل أو ذاك ، لأردّه الى

هذه الناحية أو تلك ، كأنّي أرعاه كما يرعى الرعاة أغنامهم؛ نقعي معاً، وننهض معاً، ننحني على حجر بتكوين غريب ، أو نلتقط حصاة ذات لون شاذ، أو نتتبّع آثار اليرابيع والضباب والضربان في وعوثاث قيعان الوديان ، أو نحتطب ، أو نفتّش عن كنوز الكمأ في الصحاصح التي يغزوها نبات القصيص ، أو نركض خلف الجداء في الوديان المجاورة، أو نتنقّل بين المضارب النائية التي تنتشر في السهول العظيمة متباعدة، كأنّ أهل القبيلة الواحدة لا يحتملون أوزار الجيرة، فيفرّ الجار من الجار ، ويبتعد بفسطاطه عن فسطاط جاره كل يوم مسافة حتى يكاد، مع مرور الأيام ، أن يتوارى عن الأنظار؛ بل كثيراً ما تتوارى أخبية عن مرمى بصر أهل أخبية أخرى ، فأتخيّلها الآن ، بعقل تلك السنوات ، تقع على مسيرة سفر حقيقي ، لأننا لا نعود إلى بيتنا إلاّ في العشيّ إذا خرجنا لزيارة تلك المضارب صباحاً. ولا يتخلّف أحدنا عن الآخر خطوة واحدة في المسير. نمشي متجاورين ، متلاصقين ، بل ومتماسكين ، يتشبّث أحدنا بتلابيب الآخر ، أتشبّث أنا بتلابيب الشقيق بقولٍ أصحّ؛ كأني أخشى أن يستغفلني ليفرّ، ليفلت ، ليتخلّى عنّي ، ليختفي ، ليتخفّى كما يتخفّى أهل الخفاء؛ كأنّي كنت على يقين أنه سيختفي ، كأني كنت على يقين أنه يبيّت نيّة للإفلات ، كأني كنت أسبق الأزمان ، وأقرأ في خبأة الغيب إلهاماً يتكلّم بالنبوءة قبل أن تجري الأيام بالنبوءة بأمدٍ طويل . لا أشدّ نفسي إليه في تنقلات اليقظة وحدها، ولكني وجدت نفسي مشدوداً إليه في أوقات الغفوة أيضاً. ننام متلاصقين ، بل متلاحمين ، أمسك بكلتا يديه ، يدي اليمنى تتشبّث بيده اليسرى ، ويده اليمنى تنام في راحة يدي اليسرى ، ركبتاي تلاصق ركبتيه ، وساقاي تلتحم بساقيه ، وجبيني يلامس جبينه ، وأنفي يتنفّس في أنفه ، أستنشق أنفاسه ، ويستنشق

أنفاسي، أهبه أنفاسي، ويهبني أنفاسه، ألامس صدره بصدري، أسمع وجيب قلبه بقلبي، فترقد التميمة فوق التميمة، يلتئم شقّ الحجر بشقّ الحجر، ليستوي حجراً مستديراً، حجراً كاملاً، فنعود، مع الحجر، كُلاّ واحداً، نعود كما كنّا عندما كنا في بطن الأم، نعود كما كنّا قبل أن نستوي جنيناً في جوف الأم، نعود كما كنّا حبّة بذار لم تقضمها أنياب الجنّ المتنكّر في جرم النمل، نعود كما كنّا عندما لم نكن. ترمقنا الأمة فتبتسم بغموض لا يتقنه إلاّ الخدم والأغراب وأهل الإنقطاع. تتبسّم وتبتلع بسمتها سريعاً على عادة الإماء. تستردّ بسمتها كأنها تستنكر، أو تستكثر، أو تطلب غفراناً. تسحب بسمتها كالمعتذر عن إساءة، ثم تتلجلج بتميمة اشدّ إبهاماً، لأن الأجيال توارثتها باللغة القديمة، فتبدّلت الألسن، وتغيِّر حال اللغات، وذهب الزمان بالأجيال، وجاء بأجيال عسُر عليها اللسان، فلم يجد في تمائم الأوّلين إلاّ طلسماً. وبرغم ذلك فإن الأجيال لا تريد أن تتخلّى عن الطلسم برغم عسر الإيماء في الطلسم. برغم ذلك يتشبّث الأخلاف بالطلسم لا إيماناً بقدرة الطلسم، ولكن لأن الخلف لا يريد أن يفقد الصلة بالسلف؛ لأن السلف باقٍ ما بقى طلسم السلف وصيّة على ألسن الخلف.

تتلجلج الأَمة بطلسم أسلافها الأوّلين في مدخل الخباء. ترفع رأسها لتناجي الأنجم طويلاً. تتسكع في ظلمة العراء بعض الوقت. تتفقّد الأنعام التي تجترّ في الخلوة المجاورة قبل أن تذهب لتنام. تذهب لتنام، ولكن الأمة لا تنام أبداً.

الأَمة لا تنام لأنها تخشى على الأغنام من أنياب الذئاب؛ الأَمة لا تنام لأنها تخشى على التوأمين من العقارب؛ الأَمة لا تنام لأنها تخشى على البعائر من بطش الضباع؛ الأمة لا تنام لأنها تخشى أن يهب الريح فينزع الأوتاد ويذهب بالأخبية ليلاً؛

الأَمَة لا تنام لأنها تخشى أن تستغفلها الأفلاك فتلقي على الصحراء نجوماً؛ الأَمَة لا تنام لأنها تخشى أن يستغفلها الفجر فيذهب بالقبس قبل أن تهرع الأَمَة لمشاهدة القبس؛ الأَمَة لا تنام لأنها تخشى أن يأخذها النوم يوماً فلا تستيقظ من النوم أبداً. الإماء، يا مولاي، مخلوقات لا تتحدّث بمخاوفها لأنها لم تعتد أن تشارك الأغيار أسرارها، ولكن كلنا يعلم أمراً عن وساوس الإماء. الغموض في عيون الإماء إيماء بوسوسات الإماء. اليقظة الأبديّة، أيضاً، للمخاوف علامة. لم استيقظ ليلة لأشرب ماءً إلاّ ووجدت الأَمَة تحدّق في الظلمات بمقلتين يقظتين. لم أنهض ليلة لأقضي حاجتي إلاّ ووجدت الأمة تحدّق بعينين مستنفرتين.

اليقظة قَدَر الإماء. اليقظة طلسم الإماء. التمائم المجهولة طلسم في الفم، واليقظة الأبديّة طلسم في العين.

الأَمَة تبتسم لنا عندما نستيقظ ونتكأكأ حول الموقد. الأَمَة تستحضر بسمتها الطريدة لوهلة قصيرة، فنقرأ فيها نبأ التفافنا في الرقدة قبل أن تبتلع الأَمَة في البسمة الخبر. ولكننا لا نرتدع، بل نتمادى، لأننا لا نلبث أن نتقارب، ونتلاصق، ونلتئم حول أرة النار، كأننا نواصل التحام الحُلم. نتلئم حول الموقد، قبل أن تسمو شمس الصبح، فنخرج لندبّ في العراء ملتئمين. ولكن الخفاء، كما يعلم مولاي، من أهل الوئام في حسد. الخفاء لا يغفر الوئام. الخفاء لا بد أن يفرّق أهل الوئام حتى لو كانا حجرين. الخفاء لا بد أن يضع للوئام نهاية حتى لو كان جرم الوئام مصبوباً في صلد من شقين؛ لأن وئام الشقين للخفاء عدوّ.

رسَمَ الخفاء كيده، وبَعَثَ برُسل اختطفوا من جيد الشقّ تميمته يوماً.

٧

أضاع الشقّ شقّه، فضاع منّي منذ ذلك اليوم، لأنه لم يفقد، بفقدان الحجر، التميمة، ولكنه أضاعني وأضاع الوئام. والحقّ أني أنا الذي أضعته برغم أنه هو الذي أضاع. أنا الذي فقدت السبيل إليه برغم أنه هو الذي فقد السبيل. لأن مَن فقد السبيل يفقد نفسه، ولكنه لا يفقد الأغيار الذين يفقدونه. لأن من خسر نفسه لا يخسر شيئاً، ولكن أوّل من يخسر من خسر نفسه هم ذوو القربى.

استغفلني في إحدى العشيات، فأفلت. استغفلني في عشيّ غلبني فيه النوم بعد قيلولة حامية. تكأكأت فوق رأسي أنجم الليلة التي سلفت، وأسرّ كهنة السماوات في أذني بأخبار السماوات، فلم يعرف النعاس إلى مقلتي سبيلاً الليل كلّه، فأصابني الوهن بالنهار، وذهبت بعيداً ساعة هجعت عند حلول القيلولة. قبل أن أهجع شددته من رجله بقيد إلى رجلي كما

اعتدت أن أفعل في كلّ المرّات التي أرصد في عينيه نوايا خبث أو ختل أو شقاوة، فأنتبه من الغفوة كلمّا سبقني الى اليقظة، وتهيأ للإنطلاق. ولكن النعاس ضلّلني هذه المرّة، وذهب بي بعيداً، ففكّ الرباط في غفلةٍ منّي، و.. فرّ. لم يفرّ في الحال، ولكنه تسكّع في مباءة الأنعام قليلاً كما أخبرني أحد الرعاة. تسكّع منحنياً على التراب كمن يفتّش عن لقية مفقودة كما أكّد الراعي. ثم خرج. خرج غرباً. سلك الساجياء المستوية، المكسوة بالأضرحة، والألواح الحجرية، والحصباء، ومسارب الغزلان في العهود القديمة. قال الشقيّ فيما بعد أنه ذهب لملاقاة الأمَة التي قال له بعض الصبيان أنها سارت غرباً لجلب الأحطاب من الأودية الغربية، ولم يدرِ الشقيّ أن الأمَة خرجت في بغاة الحطب حقّاً، ولكنها لم تسلك سبل الغرب المزروعة بالأضرحة، والحجارة، ومسالك الغزلان التي تتخذها قبائل الجنّ طرقاً، ولكنها اتجهت جنوباً، وغابت في الوديان التي تهوي وراء الروابي الحاسرة التي تتشابك حيناً، وتنفصل حيناً، وتمضي حتى تبتلعها المسافة في آفاق الشرق. سلك الشقيّ السبيل المضاد ففركت البريّة يديها ابتهاجاً، وتلقفت يد الوليد لتأخذه الى التّيه. كان يمكن أن يهون الأمر لو لم يسر سليل الضلال في سبيل الغرب. كان يمكن أن يهون الأمر لو لم يسر السليل في درب الغزلان. كان يمكن أن يهون الأمر لو لم يسر السليل في درب لم تهجره السلالة المسكونة بعشائر الخفاء، لتتنازل عن الدرب ليصير للدهاة درباً. كان يمكن أن يهون الأمر لو لم يسر السليل في درب الأغراب في زمنٍ غير زمن الغسق، فاختار الأبله وقتاً كان، دائماً، حكْراً على الجن وحدهم، كما اختار، قبلها، السير في سبيل كان، دائماً، سبيلهم وحدهم، وكما اختار، بالسير غرباً، وجهةً كانت، دائماً، وجهتهم وحدهم. فكيف ينجو من

كيد الجنّ، يا مولاي، مَنْ ترصّده الجن منذ كان في المهد صبيًا، وفتّشوا عنه طويلاً، طويلاً، ثم فوجئوا به يسير إليهم سالكاً سبيلهم الذي حفروه لأنفسهم منذ أزمان بحوافر مطاياهم الغزلان؛ في وقت كان لهم، دوماً، أنسب وأنبل الأوقات؛ أعزلاً من كلّ نصل مضروب بمعدن النحاس أو الحديد، ولا يعلّق في الرقبة غير ضلفة بائسة مستقطعة من حجر مجهول؟ كيف لا يكون وليد بهذا الحال، في مثل هذا الوقت، في سبيل قديم محفور بحوافر مطايا المجهول، لقيةً في كفّ أصحاب المطايا؟

لو لم يكن السليل وليداً لأنزلت القبائل الخافية قصاصاً آخر. لو كان رجلاً، أو كهلاً، أو أيّ إنس بلغ من العمر عتيّا، لاقتصّت منه عشائر الأشرار بالضرب، أو التخويف، أو الكسر، أو التعذيب، أو أيّ جنس من أجناس الإرهاب التي تلقتها أجيال القبائل من أيدي هؤلاء الجيران الأشقياء. ولكن التائه إذا نزل أوطانهم وليداً فهو بغيتهم. لأن أسلافهم أوصوا أخلافهم بألاّ يأووا في ديارهم أبناء الإنس كباراً، ويجتنبوا أن يستبدلوا خلقاً نبتت في أفواههم أنياب العقل، لأن الملّة قد جرّبت، منذ أقدم الأزمان، أنها لم تختطف، أو تأوي، أو تستبدل رجلاً من نسل الإنسان، إلا وسبّب للقوم المتاعب، وأبى أن يتركّب أو يتشرّب ناموس السلالة، بل وكثيراً ما أشبع الأبناء عناداً، وويلاً، وغرابة أطوار، فقرّر حكماء أجيال السلف، يوماً، أن يتنازلوا عن حقّهم في امتلاك كل إنسٍ أنبت في الفم سنّ العقل، لأن عقل هذه الأمّة هو بليّة تلك الأمّة، ولا حيلة لترويض خلق ينتمي إلى سلالة العقل، إلاّ بالتخلّص من صاحب هذا الغول المسمى في ألسنة أهل الخلاء عقلاً. وبرغم احتجاج أهل الحروب الذين اعتادوا أن يجلبوا أبناء الإنس أسرى في تلك الغزوات التي دأبوا على تدبيرها ضد

قبائل الصحراء متنكرين في مسوح الإنس وأجرامهم، إلاّ أن الكهنة أفزعوا القوم عندما قالوا أن الكائنات التي يجلبها الأبطال إلى الديار مغلولة في قيود الألياف ليست سوى وباء سيفني الجنّ، ويقطع سلالات الخفاء من وطن الخفاء، لأنهم يخفون في أفواههم تميمة خطيرة إسمها العقل، ولا حيلة لتجنب البلاء إلاّ في التنازل عن هذه الأسلاب، والاكتفاء بصغارهم الذين لم ينبت في أفواههم ذلك الناب الخبيث، لأنهم جرّبوا، أيضاً، قدرة هؤلاء على التحوّل، واكتساب خصال أكثر أهل الخفاء نبلاً وحكمةً ودهاء. فهل يدري مولاي بأي حيلة تحرّر هؤلاء الأشقياء من غنائم رجال يحملون في أفواههم أنياب العقل؟ لقد تنكّر الدهاة مرة أخرى. تنكّروا بأنبل الأجرام، ولبسوا أكثر الأثواب ترفاً وزرقةً ومهابة، ثم جرجروا أسراهم ليبيعوهم عبيداً في أسواق الأوطان الصحراوية البعيدة. قايضوهم بمعدنهم الذهب، وعادوا الى ديارهم أحراراً.

هذه الديار هي التي بلغها السليل فمن منّا يستطيع أن يطمع له في نجاة؟

مكث هناك ليال، ولم تعثر عليه القبيلة إلاّ بعد أيّام. لم تعثر القبيلة على شقّي الذي أعرفه، ولكنها عادت من حقول الأضرحة الغربية، من ديار الخبأة المشؤومة، بمخلوق لم أعرفه، ولم أره قبل ذلك اليوم أبداً.

استبدل الجنّ السليل بوليد من أبنائهم، وعاد رجال قبيلتنا إلى فسطاطنا بوليد من أولاد جلدتهم.

لم يفقد الشقيّ، في تلك الرحلة، شقّه المعلّق في رقبته وحسب، ولكنه، يا مولاي، فقَد، في الرحلة، نفسه.

٨

هل سمع مولاي في السِّيَر الأولى خبراً واحداً عن جنّ لا يخطفون الإنسان، ولكنهم يخطفون الإنسان بالأرض التي يقف عليها؟ نعترف جميعاً في الصحراء بعشق هذه الأمّة للدعابة، وتعلّقها باللّهو، ولكن أمم الصحراء لم تعرف جنّاً بلغ بهم الإستهتار حدّاً جعلهم ينهبون بمريدهم أرضاً، أو يخطفون بالخصوم وطناً، برغم قدرتهم علي إختطاف القبائل، وأسر جموع الناس بضربة واحدة. ولكن الشقيّ أكّد بعد زمانٍ طويل أنّ القوم لم يستدرجوه بطائر «سخرك إيبراضن»، ولم يخرجوا له متنكرين في أثواب الأقران الذين أَلِفَهم كما اعتادوا أن يفعلوا مع أغيار الصغار، ولم يأخذوه بيد الأَمَة، أو قريبة الأب، أو أيّ جارة أخرى، ولكن الخبثاء خطفوا به الأرض. خطفوا به الصحراء كلّها. هكذا تحدّث وهو يرتجف ويسفح دمع الرهبة عقب شفائه من الحمّى. أخبر أنه لم يبتعد عن المضارب كثيراً

عندما حدثت الزلزلة. إجتاز الضريح الأكبر حقاً، ولكنه لم يبلغ حقول الأضرحة حيث تتكاثر المقابر الأقدم عهداً. كان يتسلّى بلحنٍ من اللحون، ينحني على الأرض تفتيشا عن أفاحيص الطير التي تندس في شقوق غابات الحجارة، عندما سمع الأرض تتصدّع. لم يسمع الأرض تتصدّع وتتوجّع وحسب، ولكنه أحس بها تهتزّ وتتزعزع. رفع رأسه، فرأى عجباً. رأى أكوام الحجارة (التي تتكدّس فوق عظام الأسلاف) ثابتةً، وشجيرات الطلح (التي تنتصب هنا وهناك) ساكنة غامضة، ولكن الأخبية والمضارب تبتعد، وتبتعد، وتبتعد. تبتعد بسرعة الطير، بسرعة تفوق سرعة الطير، تبتعد، ربّما، بسرعة لا تقارن إلاّ بسرعة الريح؛ لأن البيوت ما لبثت أن توارت. توارت برغم استواء الأرض. توارت برغم امتداد الخلاء في بيداء بادية، مسطحة، تكشف عن الأجرام مسافة يوم كامل أو حتّى أكثر من يوم. إختفت البيوت في لمحة أو لمحتين. مع البيوت اختفت بعائر رآها ترتع في السهل الذي يحادي الفساطيط جنوباً. وقع بصره على البعائر في الغمضة التي سبقت بدء الفرار، أو، ربما، في اللمحة نفسها التي بدأت فيها الرحلة، فتبدّدت أجرامها في اللمحة نفسها أيضاً. رافق الفرار أزيز غريب. وشوشة خفيّة، ولكنها رهيبة. وشوشة شبيهة بالأنين الموجع الذي يصاحب رمية عصا في الهواء، أو أي جسم يماثل العصا. هكذا تحدّث الشقيّ في البداية. ولكنه عاد فقال أنه لا يعرف لماذا شبّه الصوت بأنين الرمية، لأن صوت الأرض في فرارها ليس كمثله شيء. ليس كمثله شيء. ليس كمثله شيء. هكذا ردّد بعناد يليق بالأولاد الأشقياء، ثم انهار وشرع يرتعش ويبكي. قال أنه لا يستطيع أن يستعيد ذكرى الصوت دون أن تنتابه القشعريرة، أو يطفح في مقلتيه الدمع، أو تستبدّ به الحمّى. قال أن الصوت في أذنه كان نبأ أخبره بالأذن، ما لم تخبر به العين، أو، ربما أخبرت به العين

أيضاً، ولكنه لم يصدّق خبر العين. الصوت هو الذي تولّى الأمر، وتجاوز البدن وأعضاء البدن، وهزّه في مكان مّا، مجهول، في الأعماق، في قاعٍ الأعماق، فأدرك بحسٍّ أقوى من كل إحساس، أن أمراً جللاً قد جرى، أمراً جللاً يجري، أمراً جللاً بدأ يجري، ويجري، ويجري، ولا يدري كيف سينتهي. لم تشلّه الأعجوبة، لم يذهله طيران الوطن، ولكن أثاره المآل أكثر مما أثارته الزلزلة. القلق الخفي الذي أيقظه فيه الصوت الخفيّ أفسد عليه اللذّة. أفسد لذّة الفرار. لذّة أن يجد الإنسان نفسه يمتطي صهوة وطن يمخر به الفراغ كما تمخر نجائب الإبل بالفرسان الهواء. لذّة أن تسافر حاملاً في قدميك أرضك، وطنك، مسقط رأسك، عشّك، نعيمك. لذّة أن تنال الفردوسين بضربة واحدة: فردوس الأسفار الذي يخلص عشاق الأسفار من وزر الأوطان، وفردوس أوطان كفّت عن أن تكون وزراً، فحصّنت المسافر من أوجاع الحنين. أجل، أجل، يا مولاي. الأسفار والحنين وأناشيد الشجن ليست تمائم أهل الصحراء، ليست كلاماً على ألسنة أبناء الصحراء ولكنها كلمة السرّ التي تجري على ألسن أبناء الصحراء قبل أن يجري الكلم على ألسنتهم، قبل أن يتلجلجوا بكلمة «أم» أو «أب»، بل قبل أن يعرفوا الصحراء، في ذلك الزمان الذي يتسلّط عليه النسيان، عندما كانوا بذاراً في بطون الأمهات. لقد أسرّ لي عن تلك اللذّة مراراً. لذّة الفرار. لذّة الأسفار التي يطير فيها عاشق الأسفار بأجنحة الأهوية حاملاً وطنه في قدميه. ولكنِ الهاجس أفسد الوجد كثيراً. الأنين المبهم أيقظ في المجهول قلقاً، أيقظ خطراً، أيقظ في النهاية، خوفاً. أجل. الخوف لم توقظه الأعجوبة، لم يوقظه نزع الأرض من أمّها الأرض، لم يوقظه اختطاف الصحراء من وطن الصحراء، لم يوقظه فرار الأشياء، لم يوقظه اختفاء المضارب والبعائر والمقابر وقامات الطلح، لم يوقظه المرور

بالوهاد والروابي وسفوح جبال تلامس شعافها سماء المساء، ولكن أيقظه هسيس مكتوم، بعيد، لا يكاد يُسمع. لحن يختنق، وشوشة يكتم أنفاسها الهمس. وسوسة بين عاشقين ينفيها الوجل والارتباك والشكوك. إيماء مجهول لا يتكلّم به إلاّ المجهول. اختطاف المكان رافقه اختطاف في الزمان أيضاً. أخبر أن الضياء تبدّدد أيضاً. غابت شمس الغسق كما غابت الصحراء من البيداء. غابت في لمحٍ قصير أيضاً. غابت فسادت اغلاس المساء. ولكن الظلمات لم تَسُد حالاً كما توقّع. تنزلّت غلالات عتمة ممزوجة بضياء خجول، فرأى في الستور أشباح الكائنات زمناً طويلاً. وحتى عندما انتهت الرحلة، واستقرّ الوطن أخيراً، كانت اللفافات المنسوجة بخيوط ضوء مجهول، تتخلّل الفضاء، وتلوّن الآفاق ببارق سنا مشبوب بشفافية صدآء. استقرّ سليل الوطن، بالوطن. نزل سليل الوطن وطناً آخر حاملاً في قدميه وطنه. ولكن الشقي الذي حدثني كثيراً عن سفره، وعن لذّة سفرٍ يُحمل فيه المسافر على ظهر الوطن، إلاّ أنه لم يتحدّث عن أمره بعد أن استقرّ به الوطن أبداً. كان يتبدل، ويحقن وجهه بدم مخلوق آخر، وينتفخ كما ينتفخ الضبّ ساعة الغضب، ويجيب في جفاء لم أعهده فيه قبل غيبته: «ذلك ما لن أحدّث به أحداً أبداً». كنت ألحّ عليه أحياناً، وفي أحايين أخرى كنت أستغفله، أو أستدرجه بأجناس الحِيَل، ولكنه يتبدّل، ويستقرّ في بدنه مخلوق آخر (أيقنت فيما بعد أَنه ولد من أولاد السلالة الخفيّة) ليردّ في غضبة مكتومة «لا أدري»، أو بـ«لا أذكر»، أو تنتابه حالة الجنون، فيتزعزع برجفٍ، ويلفظ من الفم زبداً، ويغزو العينين بياض حتى يغيب السواد تماماً، ليحلّ في المقلتين جنون المجذوبين الذين خطفهم الغناء، ويمسك بخناقي محشرجاً بصوت ليس صوته: «إحترس! احترس! احترس!» فلا أعلم سرّاً لا للوعيد، ولا للاستنفار، ولا للانقلاب.

٩

لم أعرف، يا مولاي، لا في الصغار ولا في الكبار حمّى كتلك الحمّى. رأيت المحمومين كثيراً. رأيت أهل الوجد الذين تصرعهم اللحون. رأيت صغاراً يحترقون بالنّارِ في مواسم الأوبئة التي تأتي بها الرياح أو القوافل. رأيت شيوخاً وعجائز يهجعون بعلل الشيخوخة، يتلوّون وجعاً، يعاركون نوبات الإحتضار ببسالة الفرسان، وتكشف عيونهم عن الحسرة والمرارة قبل أن تسكن الأجساد، ويحلّ في العيون الفراغ. رأيت جنوناً كثيراً، يا مولاي، ولكني لم أَرَ جنوناً يجاور الجنون الذي عاد به القرين من رحلته إلى بلاد الجنّ.

ألقى به الرجال في قعر الخباء وانصرفوا. تركوه بين يدي الأَمَة فاندفعت لأرى. استوقفتني بيد، في حين مضت تحتضن الجسد المكوّم في حجرها كخرقة بئيسة، شاحبة، بائدة. عاندت وأبعدت اليد بخشونة. خشونة لم أكن لأجسر وأبتدر

بها الأَمَة الجليلة لو لم أكن غائباً. ولكن الغيبوبة لم تمنعني من رؤية الجسد الذي لم يعد جسد شقّي، من رؤية الجسد الذي استقطع من جسدي، وأُلقي به في الخلاء كعضو جسد اجتثّ من جسد. لم تنتابه الرعشات السريّة التي كانت تنتاب جسد الأم ليلة القربان. لم يفزّ بين الحين والحين بالانتفاضات المجهولة، المحمومة، الفجائية، التي عرفتها عندما احتضنت يوماً جسداً أنهكه النزيف. ولكن جسده كان جسداً آخر. كان جسداً هامداً. كان جسد بارداً. كان جسداً خاوياً أيضاً؛ خاويا من العبء، خاويًا من الأمعاء والعظام والدماء وودائع الجوف، خاوياً من... خاوياً من صاحب الجسد، بل وخاوياً من الجسد نفسه، لأنني وجدته خفيفاً كلفافة من ريش الطير، أو قطعة من عهن منفوش. كنت أتشبّث به، وأحتضنه بين ذراعي كجراب جلدي أجوف، كما أخبرتني الأمة بعدها بزمن طويل. في ذلك الوقت أذاع الرجال في النجوع النبأ، فدبّت في كلّ الأخبية حركة مشبوهة. اشتدّ السكون، ذلك الجنس من السكون الذي يعقب أنباء الخطر، فتفوح في النجوع رائحة الحذر، والانتظار، والتأهّب لاستقبال البلاء. في ذلك الجنس من السكون يتحوّل حتى أصغر الصغار كهنةً، فيسري الوسواس في صدورهم، ويسكتون عن البكاء، ليبدأوا مع الكبار مسيرة التجسّس على صوت الخلاء. أقبل على الفسطاط أوّل فوج. أقبلت النساء واحدة وراء الأخرى. أقبلن في سكوتٍ لم تكن ملّة النساء لتطيق عليه صبراً لولا الاحساس بجلال البلاء، لولا الخوف من تمادي البلاء، لولا اليقين في قدرة السكون على كتم أنفاس البلاء، لأن الأقوام ظنّت دائماً أن السكون تميمة ضد كلّ بلاء. كانت قريبة الأب أول من اقتحم الخباء، فدار بيني وبينها، حول جسد القرين، عراك مميت. هكذا قالوا. حاولت المرأة أن تنتزع الجسد من بين

يدي. حاولت أن تأخذ من حضني جسداً صار جزءًا من جسدي. حاولت أن تخطف جسدي من جسدي. حاولت أن تسلخ جسدي من جسدي. حاولت أن تفعل ما يجب أن يُفعل. حاولت أن تطرح جسد الممسوس أرضاً، لأن الوصية تقول أن الأرض عدوّ العلّة، لأن الوصية تقول أن الأرض كانت لأهل المسّ بلسماً كما كانت لأوبئة الخلاء ترياقاً؛ لأن الوصية تقول أن الرجوع لصدر الأرض للشفاء أول شرط. ولكن هيهات أن يتخلّى المخلوق للخلق عن جسد صار جزءًا من جسده. هيهات أن يتخلّى المخلوق للخلق عن جسد لم يصر جسده بالالتحام المحموم، ولكنه كان له جزءا، شقّا، نصفاً، منذ كانا كلاّ واحداً، منذ كانا بذرة واحدة في بطن المجهول، منذ كانا تميمة واحدة في جوف الأم، في جوف سبق جوف الأم، في جوف سبق جوف الأرض، في جوف سبق جوف الخفاء المجهول. فكيف تجاسرت قريبة الأب أن تستقطع من الجسد ضلفة الجسد؟ كيف طمع فريق النسوة أن يأخذن من المخلوق نصفه دون إراقة دماء؟ فررتُ بجسدي. استعدت نصفي المشلول، وضممته إلى صدري، وخرجت من الخباء هارباً. انطلقت في الخلاء. دخلت مباءة الأنعام. إجتزت المباءة. أدركتني الأمَة. أدركتني الأمَة أوّلاً. أدركتني تلك المخلوقة الخفيّة التي لم أرها يوماً تهرجل، فكيف بالجري؟ أدركتني الجنيّة التي لا تنام. أدركتني الداهية التي لا تتكلّم. أدركتني السعلاة التي لا تأكل. أدركتني المخلوقة التي لو كانت تنام ككل الأنام، أو تتكلّم ككل الأحياء، أو تأكل طعاماً ككلّ أصحاب الأجرام، لما أدركتني، لأنني، يا مولاي، لم أكن في تلك المطاردة مخلوقاً ككل مخلوق. لم أكن جسداً يحتضن جسداً، ولكني صرت في لمح البصر طيراً، جناً، ريحاً. هكذا تندرت قريبة الأب مراراً. ولكن الجنّ أدركته

الجنيّة. الريح أدركته الريح. ولو لم تكن الجنيّة جنية لما أدركت جناً. لو لم تكنِ الأمة سرّاً من أسرار الصحراء لما استطاعت أن تغلب الجنّ، وتدرك الريح. لو كانت الداهية تنام كما ينام كل الأنام، وتتكلّم كما يتكلّم كل الأحياء، وتقتات كما يقتات أصحاب الأجسام، لما فازت بجنّ يتأبط بدنه، ويفرّ على مطيّة الريح. ولكنها ... أدركتني. أطاحت بي على مسافة خطوات من مباءة الأنعام. أقبلت العمّة أيضاً. أقبلت قريبة الأب لتبرك فوق رأسي. ولكني استبسلت. استبسلت فنفضتهما عن جسدي، نفضتهما عن الشكوة الجوفاء التي احتضنها إلى صدري، نفضتهما لأحرّر من قبضتهن نصفي المشلول، وكدت أفلت. بل أفلتّ، لأني استطعت أن أتخلّص وأهبّ واقفاً. ولكن تكأكأ فوق رأسي فوج النسوة. تناهبتني الأيدي، وصرعتني الأجسام المسلحة بالنهود، والسواعد المحصّنة بأساور الفضّة والسيقان الخدلّجة، المزمومة العضل. صرعت النساء جنّاً كما أدركت الجنيّة جنّاً. صرعت أضعف المخلوقات طرّاً مارداً استعار من الجنون قوّة الجان. أستطيع أن أقسم، يا مولاي، أن أعتى رجال القبيلة، وأشدّ فرسانها بطولة، لم يكن ليستطيع أن يتمكّن مني، أو يطيح بي، في عناد ذلك اليوم، لأني إن نسيت في العراك كل شيء، فإني لن أستطيع أن أنسى القوّة التي استيقظت في قلبي حتى آمنت بقدرتي على الإطاحة بأنصاب الجبال بضربة كفّ. يومها صدّقت ما قيل عن وجوب خشية ضعاف القوم، لأن في ضعاف الأجرام سرّاً يجعلهم على قهر الأقوياء أقدر، لأن الأجيال جرّبت أن الأقوى لا يطيح سلطانه إلاّ الأضعف.

ماذا حدث بعد مصرعي؟

حدث، يا مولاي، ما كان يجب أن يحدث. حدث ما كان مقدّراً أن يحدث. غبت مع نصفي الأجوف. رقدت إلى

جوار جسدي المشلول. احترقت بنيران الحمّى كما احترق الجسد. سبحت في سيول الحمّى كما سبح الجسد. تقيأت دماً في سواد الفحم كما تقيأ الجسد. عشت حياة أخرى، في مملكة أخرى، كما عاش الجسد. وعندما عدت إلى الصحراء، ورأيت البادية، بعد غياب دام طويلاً، وجدتُ إلى جواري الجسد، ولكنّي، يا مولاي، لم أجد روح الجسد.

١٠

شاركته فراش المرض، كما شاركته كلّ فراش، كما شاركته فراش المنام زمان العافية، كما شاركته جوف التكوين، كما شاركته بذرة المجهول، كما شاركته تميمة الحجر قبل أن تنفلق نصفين، كما شاركته حبل الدّم الذي أحْيَانا، كما شاركته النأمة، والنَّفَس، ونبضِ القلب. لم أشاركه الفراش وحسب، لم أشاركه جحيم الحمّى وحسب، لم أشاركه استنشاق رياح الشيح، أو تجرّع المراهم المريرة، أو تلقّي تعاويذ السّحرة وحسب، ولكني شاركته أسفاراً مريبة تسمى في لغة أهل الخلاء كوابيس وهذياناً وأضغاث أحلام. خرجت برفقته لزيارة بلاد الجنّ يا مولاي، فرأيت هناك ما لم أره. رأيت، هناك، ما لن أراه. رأيت ما لن تستطيع عضلة الفكّين أن تجري به يوماً، فعرفت سرّ تكتّمه على رحلته عندما خرج إلى حقول الأضرحة الغربية وحيداً، أعزل، لا يملك

للدفاع عن نفسه سوى فلقة الحجر القديم. أدركت، عندما كنت أسائله فيما تلا من زمان، علّة إصراره على الإنكار، وانتقاع لونه، وتبدّل خلقته، ورميه بـ «احترس» في وجهي. حدست، يا مولاي، سبب الغموض في المرّات التي يسترجع فيها الرحلة، وغيابه عن دنيا الصحراء أوان جوابه بـ «لا أدري»، أو «لا أذكر»، فكنت أمسك عن الاستفزاز، وأمتنع عن السؤال، وأخنق في النفس اللئيمة الفضول المميت.

ولكنّا وقفنا، يوماً، على قدمينا.

لم نقف على الأقدام إلاّ بعد مرور زمن طويل. قيّدنا جنّ العلّة طويلاً، فاستعنّا بأيدينا. عدنا نحبو كما كنّا نحبو يوماً. زحفنا على أربع لأن الخروجٍ من المرض، أيضاً، ميلاد لا يختلف عن الميلاد الأقدم عهداً. لأن المرض، أيضاً، منفى لا يختلف عن المنفى الذي يسبق الخروج من بطن الأم. لأن المرض، أيضاً، يطوف بنا المجهول، وينزل بنا البلدان، ويلقننا الوصيّة. لأن المرض يعلمنا أنه نقيض العافية التي لا نعرفها حقّاً إلاّ إذا فقدناها، إلاّ إذا غابت، إلاّ إذا حضر هو، نقيضها، المرض.

لم نبدأ بالزحف علي الأطراف الأربعة لتعلّم المشي وحسب، ولكننا بدأنا نتعلّم الكلِم. صرنا نتلجلج ونبرطم ونفأفئ ونثأثئ كما كنّا نفعل عندما اكتشفنا يوماً في أفواهنا وجود عضلة لعوب، مرنة، سلوس، تتلوّى بين الفكّين، كالحيّة، وتطلق أصواتاً مثيرة، وكان علينا أن ندبّ في الصحراء طويلاً كي نعلم أن العضلة الخبيثة لا تملك مرونة الحيّات وحسب، ولكنها تخبئ في شقوقها سموم الحيّات أيضاً. ذهبنا لنكتشف الصحراء بأجسامنا، وحاولنا أن نكتشف أنفسنا بلسانينا، لأن الكهنة قالوا أن المخلوق إذا زار الخفاء فلا بد أن يفقد لسانه، وعليه أن يتعلّم الكلم من جديد

كما يتعلمه المخلوق الوليد. قالوا أيضاً أن الإنسان إذا دخل مجاهل الخفاء فلا يفقد اللسان وحده، ولكنه ينسى. والنسيان مارد يأخذ من الإنسان كل شيء، ولا يبقي له حتى القدرة على المشي، فيبدأ الشقيّ بالزحف أرضاً لأن العائد من رحلة المجهول لا يختلف عن الوليد الذي وُلد من جوف المجهول.

ولكننا حققنا الغلبة، واستقام فينا الظهر، وانتصبت العظام، فوجدنا أنفسنا نقف على القدمين. في فجوة الفم، بين الفكين، استقامت العضلة أيضاً، وتلوّى اللسان بالنّهم. تلوّى اللسان بالنهم فثرثرنا وتساءلنا وتنابزنا وأكثرنا من اللّغو. اكتشفنا وجود اللسان ففرحنا فرح من عثر على واحة الماء بعد يأس الظمأ. فرحنا بالقول فقلنا وأكثرنا مِنْ كلّ قول. أحسسنا باللغط ألحاناً، وبالأصوات أشعاراً، فرددنا لحوناً سمعناها من ألسنة الصبايا، وغنينا أشعاراً سمعناها من أفواه الرعيان، فبكينا. بكينا، ربما، ابتهاجاً باكتشاف اللسان، وربما وَجْداً بيقظة حنين لا يبعثه إلاّ من امتلك بين الفكّين لساناً. صار لنا اللسان في سفر الخروج دليلاً، ووجدنا فيه برهاناً وحيداً على عودة لم نكن لنصدّقها، يقيناً، لولا وجود اللسان. ولكن... ولكن ما لم أقبله، ما لم اعترف به، ما قدّر لي، يا مولاي، أن أنكره إلى الأبد، هو التحوّل. لقد صار القرين مخلوقاً آخر، صار الشقّ جلفاً وصلداً، صار التوأم كائناً مكابراً، معانداً، وكريهاً؛ يغضب بلا سبب، ويخاصم طلباً للخصام، ويجافي بلا علّة، يعارك الأقران، ويرشق الصبايا وحتى النساء بالحجارة، ويشنّ حملات العدوان على جيوش الأنعام وعشائر الطير. يخرّب الأعشاش، ويدمّر الأفاحيص، ويسحق الأفراخ سحقاً. ولا أنسى يوماً اختلس فيه من زاوية الخباء طيري. كنت قد اصطدت طائر البشارات الذي لم يسبقني لاقتناصه في الصحراء أحد. أجل. استطعت أن أقتنص طائراً

لم يقع لإنسان يوماً في يد، ولِمِ يمسك به صائد في فخّ، لأنه طائر لم يعرف له عش، ولم ير له بيض، ولم يجد له مخلوق يوماً جثّة، لأنه... لأنه، يا مولاي، طائر لم يلد، لأنه طائر، يا مولاي، لم يولد، لأنه... لأنه طائر الخفاء الذي اعتاد أن يأتي القبائل بالبشارة، لأنه، لأنه، كاهن وليس طائراً، فكنت أوّل من حقّق الأعجوبة، وأوقع «مولا-مولا» بين يديه. كنت أرتجف وأبكي وأغني يوم اختلست كنزي من المجهول بطبق السعف. نصبت الطبق مقلوباً فوق عود حطب، وشددت العود بخيط. نثرت في الداخل حبّاً، واختبأت في ركن الخباء متشبّثاً بالخيط. مكثت طويلاً. كانت الأمة قد خرجت بالقرين لزيارة الكاهن لاستبدال حجاب سقط بالتقادم وربطتني إلى ركيزة الخباء بحبل مخيف من المسد. حاولت أن أتحرّر، ولكن الحبل افترس رسغي حتى نزّ الطوق دماً، فقررت أن أتسلّى. قررت أن أفتّش عن تسلية تلهيني عن القيد، فألهمني الخفاء الحيلة، وترصّدت في الزاوية طريدتي. قلت أني مكثت طويلاً. مكثت طويلاً حتى أخذني النوم. وعندما استيقظت وجدت الطبق منكفئاً فظننت أنه انقلب بدفع الريح. زحفت إلى مدخل الفسطاط حيث استقرّ الطبق. شيّعت طرف الطبق وادخلت يدي لأستطلع. تحسست الجوف فوقع الجسم في يدي. لم يرفرف. لم يتملّص، لم يعاند ولم يحاول الإفلات. سحبت يدي فوجدت فيها الجرم الأسود المتوّج بالبقعة البيضاء. لم أصدّق. لم أصدّق لأني صدقت الوصايا. لم أصدّق لأني لم أشأ أن أكذّب الناموس الذي جعل «مولا - مولا» طائراً مستحيلاً، الناموس الذي أكّد أن الوصول إليه كإدخال الجمل العدبّس في سمّ الإبرة، الناموس الذي أكّد أن طائر الخفاء كالخفاء نفسه وجوده في الصحراء خدعة من خداع البصر، ولا يوجد حقّاً إلا في الخفاء. حبست طائر الخفاء في

شبكة محبوكة من كتل الألياف، وأطعمته الحَبّ وفتات الخبز وديدان الخلاء. هددتني الأَمَة بعينيها الخفيتين، وأومأت لي مراراً أن أطلق سراحه، ولكني أبيت وتوعدتها بالحجارة. قالت عمتنا قريبة الأب أن الاستيلاء على طائر البشارة ليس بشارة، ولكنه فأل سوء، فملأت حِجْري بالأحجار وتوعدتها بالقصاص أيضاً. أخفيت كنزي في الزاوية بين غرائر التمور والحبوب، وسرحت في الأودية لأجلب له الديدان. ولكني وجدته بين يدي الشرّير، بعد عودتي في أحد الأيام، ميّتاً. كان يمسك به بكلتا يديه و... يحدّق في الفراغ بلامبالاة. كان يسحقه بين يديه ويرقب الفلاة ببرود القتلة. كان يخنق الضحية المقدّسة ويشيّع رأس الاستكبار كأنه لم يهلك بيديه سوى حشرة. كان رأس الضحية يتدلى من قبضتيه في استرخاء موجع، ومنقارها الصغير يفضح لساناً أصغر حجماً، له لون غريب، لم أره، لم أكتشفه في اللقية قبلها. العينان مفتوحتان، هامدتان، مطفأتان. هل قلت «مطفأتان»؟ لا. لا. لم يكن ذلك انطفاء. هيهات أن يكون التسليم انطفاء. هيهات أن يكون الوجع انطفاء. هيهات أن يكن غموض الأموات انطفاء. في البدء لبسني الشلل، وما أن تحرّرت من أغلال الشلل حتى وجدت نفسي أنزل على وجه القرين بالكفّ، بالكفين، بأكفّ أخرى استعرتها من حقدي وذهولي ويأسي. صفعته. صفعته. أشبعته في ذلك اليوم، يا مولاي، الصفع لأوّل مرّة. كنت أصفع، وأصفع، وأصفع، فأحسّ الصفع في وجهي، فوق جلدي، في دمي، حتى أيقنت أني لم أكن أصفع مخلوقاً يجثم أمامي، يفصلني عنه الفراغ، يبعد عن جسمي مسافة، ولكني كنت أصفع وجهي، وألطم جلدي، وأوجع، بالضرب، نفسي. ولكن النار في جوفي كانت أشدّ من أن يوقفها وجع اللطم الذي كنت أنزله على

وجهه، على جسده، على لحمه، على وجهي، على جسدي، على لحمي، فلم يطفئها ألم البدن، هيهات أن يطفئها الألم، هيهات أن تؤتى آلام الصحراء كلها قدرة تستطيع بها إطفاء نار غضبتي. فهل يدري مولاي ما الذي استطاع أن يطفئ اللهب؟ ما رأيته في عينيه هو ما استطاع أن يطفئ اللهب. ما رأيته في عينيه، يا مولاي، أيقظ في صلبي وجعاً أشدّ وقعاً من كل الأوجاع، وجعاً ابتلع، في لمح، كل الأوجاع، لأني رأيت في عينيه إيماء ليس إيماء أوطاننا، إيماء لم تعرفه في الأنباء صحراؤنا، لأنه إيماء لم يكن من دنيانا يوماً. فهل هو شقاء؟ هل هو يأس إنسان عجز عن الدفاع عن النفس؟ هل هو وجل إنسان خانه اللسان فلم يملك إلى القول سبيلاً؟ هل هو اللامبالاة؟ هل هو الخواء الذي يعقب كلّ إثم عظيم؟ أم أنه الخفاء؟ أجل، أجل، يا مولاي، ما رأيته في تلك الساعة لم يكن إلاّ خفاء جليلاً. خفاء خفى عنّا فخفناه وأنكرناه واغتربنا عن دنياه. خفاء لا يراه الكاهن ولا الشاعر ولا الساحر لأنهم خانوه يوم استبدلوه واكتفوا بظلّه الإلهام بديلاً. فماذا حدث في اللمحة التي رأيت فيها إطلالة الخفاء العظيم في عيني القرين؟ لا أذكر يقيناً، ولكني بكيت. لم أبكِ، ولكني رفعت عقيرتي بنواح فاجع. بدأت المناحة لأن بكائي لم يتوقف منذ مددت يدي لأصفع القرين، منذ مددت يدي لأسبب الوجع لروح القرين؛ لأن البكاء رافق الاعتداء منذ البداية، ولم يكن ليستطيع أن يتحوّل تعبيراً عن الوجع لو لم يرتفع في نبرة نواح. نحت وفررت بنواحي إلى الصحراءِ. همتِ في الخلاء، ولكن نزيف القلب لم يتراجع، بل اشتدّ. اشتدّ نزيف القلب فيئست، وقررت أن أموت. قررت أن أموت، ولكني لم أعرف الطريق الذي يستطيع أن يقودني إلى الموت من أقصر طريق. لم أعرف الطريق إلى الموت، فذهبت

إلى العرّاف ليدلّني على الطريق. لا أعرف الآن كيف استطعت أن أحدّثه بأمري، ولا أذكر اللسان الذي عبرت به عن قراري، ولكني أذكر أن ذلك العجوز الحكيم ابتسم في وجهي، وأخذ رأسي بين يديه، وقال بصوت الرحمة أن الصحراويين سلالة ولدت لتحيا الحياة، ولكن المرّة الوحيدة التي يحق فيها للسلالة ألاّ تحيا، هي في الساعة التي لا تعود فيها السلالة تريد أن تحيا. ثم شدّني إليه وأمرني أن أنصت جيّداً لأنه قرّر، قبل أن يدلّني على الطريق، أن يسمعني سيرة من سير الأوّلين. لا أريد الآن أن أسمعك السيرة حتى لا أطيل عليك، ولكني لا بد أن أسمعك ما قاله الأب عندما عاد من أسفاره التي لا تنتهي، فأخذني من يدي، وخرج بي إلى عراء ليلةٍ غمرها مولاي بالسنا، ليحدّثني بالوصيّة. قال أن القرين خرج لزيارة التيه يوم اختطفه أهل الخفاء، وصاحب التّيه، إذا زار مملكة التّيه مرّة، فلا يعود من التّيه أبداً. قال أن التّيه يلاقي أصحاب الضياع في الجزْع، ليأخذهم في الأحضان، فلا يتخلّى عنهم أبداً حتى لو عادوا إلينا بأجرامهم، ومكثوا بيننا بأبدانهم، وتحدّثوا إلينا بأفواههم. من وجد نفسه في الصحراء فقدره التيه، ومن خرج ليختلي بالصحراء فبعثت له الصحراء رسلاً ليختطفوه، كما اختطفوا القرين يوماً، صار له التّيه قدراً مرّتين، فافهم!

حاولت أن أفهم، يا مولاي، ولكني هل استطعت، حقّاً، أن أفهم؟

١١

وإذا كان القرين قد استفزّني بغرابة الطور، وأثار غيظي بغيته ونظرته إليّ تلك النظرة التي لا تراني، فإنه أيقظ في نفوس الأغيار رحمةً لم يخصّوا بها إلاّ تلك الفئة، في القبيلة، التي ألّمت بها بليّة، أو عرفت مصاباً، أو صرعها الدهر بضرب من ضربه، فرأيت في عيون الغرباء الشفقة قبل أن أعرفها في أفعال الأقرباء. جاد عليه الخلق بالعطايا، وتساهل أولاد المضارب مع حماقاته وشقاواته؛ وانحنت فوق رأسه كاهنات القبيلة بلجلجات التعاويذ؛ واحتضنته النساء الشهيّات ودسسن وجهه في نهودهن المزمومة ليشتمّ عطورهن اللذيذة المستحضرة من زهور الرتم؛ وتلقاه الرعيان في خلوات الأخبية ليدسّوا في يديه حبات الكمأ أو قطع اللحوم المجفّفة أو صغار الضّباب. أمّا نبلاء القوم وأكابر العشائر فكانوا يستوقفونه كلّما اعترض طريقهم، ويدمدمون بصدورهن أنين الحنين طويلاً، ثم يتنازلون عن

كبريائهم الخالد، ليسائلوه ويستجوبوه ويطلقوا في وجهه دعابات لم ينعم بسماعها في القبيلة لا الأقران، ولا الفتيان، ولا حتى الفرسان؛ لأن الأكابر اعتادوا أن يخفوها ليسلّوا بها أغراباً ينزلون الأرباع أضيافاً في ليالي الشتاء. في البيت، أيضاً، دبّت الشفقة على قدمين. أوّل عهدي برحمة البيت كان يوم فوجئت بالأَمَة الصارمة تضع ملعقة العود في فم القرين لتطعمه قشدة استخرجتها من الشكوة للتوّ. كنّا نتحلّق حول نار الصباح ككلّ يوم. وكانت الجنيّة تترنّح إلى الجانبين مع شكوة الحليب. رقصت طويلاً كما اعتادت أن تفعل كل يوم. تنزل على سيمائها الصدآء حجاب اكتئاب مجهول. تنظر، عبر المدخل، إلى غلس الفجر كأنّها عرّافة تنهمك في فكّ طلسم نبوءة عسيرة. نظرة لا مبالية، وربما مكابرة، وربما بلهاء، وربما مزيج من هذا كلّه، لأن الدهاة يعلّمون أن الحكمة في الغموض، يقولون أن القول الحقّ في الامتناع عن القول، يؤكدون أن النبأ الأعظم هو النبأ الذي بخل به الفم وركنه وديعةً في كهف السرّ. لغة الأَمَة، أيضاً، سرّ. لغة أمتنا، يا مولاي، كانت، دائماً، سرّاً. لأن الأَمَة التي لم نرها تغمض عيناً لتنام، أو تفتح فماً لتأكل، لم نرها تفتح فماً لتتكلّم أيضاً. عين الأمة، أيضاً، كفم الأمة، لم تخذلها يوماً. عين الأَمَة، أيضاً، تخفي ما يجوس في قلب الأمة. عين الأمة لا تتكلم أبداً. وعندما كنا نحاول أن نستغفلها، ونحاول اختلاس القشدة كلما انتهت من رقصتها مع الشكوة، كانت تتناول المِسْعَر وتضربنا به على أصابعنا. كانت الداهية تهاب الشكوة، وتعامل كل ما يخرج منها بمراسم جليلة ذكّرتني، دائماً، بتلك المراسم التي يحيط بها القوم القرينة في الأسبوع الذي يسبق الزفاف، وفي الأسبوع الذي يلي الزفاف. حتى ترنّحها يمنةً ويسرةً مع الشكوة أثناء المخض

مستعار من حمّى أهل الوجد. وصوت الحليب يدمدم في الجوف بإيقاع الطبول، ونظرة الأَمة تغيب، وتبتعد في المجهول، كما تبتعد عيون أصحاب الحنين الذين صرعهم الطرب؛ تذهب الأمة إلى الوطن الذي يذهب إليه كل أبناء الشجن، ويطول بقاؤها هناك كثيراً، لأن الرعاة يكونون قد هشوا الأنعام وخرجوا إلى المراعي، والرجال شدّوا الرحال على الرواحل وانطلقوا لقضاء الحوائج في البراري والواحات والبلدان، والشمس غزت الصحراء، وارتفعت عن قوس الأفق قيس إصبع، قيس شبر، قيس قامة حتى كادت تستقيم في الضحى، ويختفي الأب من النجوع كما اختفى من النجوع كل الرجال، ونكون نحن قد انصرفنا إلى لهونا، أو خرجنا وراء الجداء، أو انضممنا إلى حلقة الأقران لنرتاد أضرحة الروابي، أو ننزل الأودية بحثاً عن اليرابيع أو العساعس، أو الأرانب، أو الضباب، ونترك الجنيّة تلعب بدميتها. نترك الأَمة تداعب جنينها. نترك الكاهنة ترمي بلعبتها في الهواء لتتلقفها من جديد. تدفعها إلى اليمين فيندفع السائل في الجوف جانباً. تميل مع الميل جانباً. تستعيد الميزان. تعتدل في جلوسها. تدفع جنين الجنّ جانباً مضاداً. يندفع الجرم الجلدي المنفوش، فيندفع جرم صاحبة الجرم مجاريًا. ترتفع الدمدمة. يشتد الإيقاع، تشتعل الحمّى، يرفرف طير الحنين في الأفئدة. ويتكوّر جنين آخر في رحم الجنين. تتكاثف القشدة، ويتكوّن في جوف الشكوة جسم الزّبد بعد كفاح صارم. تفرغ الجنيّة من جنون الوجد لتبدأ مراسم الاستخراج العسير. تبدأ في توليد الزبد من فم الشكوة بغناء الرعيان عندما يستخرجون الحوار من بطن الناقة. كنا نتسلّى بالمشاهدة، ولكنها كانت تنتهرنا بالعين أو تطردنا بمسعر النار. ربما لأنها لا تجد فرقاً بين الطقسين، ربّما لأنها ترى أن استخراج القشدة (التي اختلقها الوجد بحمّى

الجنين) ميلاد لا يختلف عن استخراج الحوار من بطن الناقة، لا يختلف عن إخراج الوليد من بطن أم الوليد. تتستّر بالستور في زوايا الخباء فراراً من العيون، ولا يقع بصرنا على الأجنّة إلاّ سمناً محصوراً في القعب، أو في الأوعية، أو في قرب أخرى أعدّت لتوضع في أيدي الأب (في الأزمان التي يتزامن فيها الخصب مع وجوده في رباع القبيلة)، أو في أيدي الرعاة، أو في أيدي بعض الأخيار الذين يسافرون بالكنز ليقايضوه بالتمور أو الحبوب أو الأقمشة في الواحات، أو لدى تجّار القوافل، أو في ديار القبائل البعيدة. يقايضون الكنز النفيس ليعودوا إلى البيوت لنأكل، بالمقايضة، خبزاً، نسينا له طعماً، أو نلتقم تموراً لم نأكلها منذ عهد بعيد جداً، أو نرتدي، بفضله، ثياباً حقيقيّة بدل الخرق والأسمال الممزقة التي نلفّ بها أجسادنا. هذا هو السرّ الذي يعيدنا إلى الحياة بعد أن يئسنا من الحياة، هذا هو البلسم الذي يجلب للقبائل الشفاء بعد علل الجدب. هذا هو الطلسم الذي تحيطه الجنيّة بهالات الغموض وأجناس القداسة، هذا هو الإله الذي تصلّي له في رقصها حول موقد النار، وتقدّم له القرابين الخفيّة في زاوية الخباء، وتنهرنا بصرامة إذا حاولنا أن نمد أيدينا إليه خوفاً على المعبود من الدّنس. لهذا السبب غلبني الدهش يوم وجدتها تمدّ يديها، وتستخرج كتلة نديّة، رجراجة، مستديرة، ناصعة، شهيّة، يفزّ منها الدهن، لتضعها في فم القرين. لم تولينا ظهرها لتستخرج من رحم الشكوة كنزها كما عوّدتنا، ولكنها، في ذلك اليوم، مالت بجسمها نحو الشّقّ الذي تربّع على يمينها، فمالت الشكوة معها. كانت تحتضن الجنين النفيس في حجرها، تمسك طرفيه بيديها الرماديتين النحيلتين، بحنان أمّ أجهدها التلاعب بالجنين، فاحتوته في الحِجر، وعكفت عليه تهدهده، وتفكّ رباطه، لتستدرج من فمه اللقية. أحكمت قبضتها على

الفوهة، واستدرّت الكتلة بيدها الأخرى. عصرت بأناملها الهزيلة رقبة الشكوة في دغدغات ماهرة، خبيرة، مثابرة، فتدرّجت العصارة، عبر الرقبة، بمهلٍ مثير لليأس. بلعت ريقي حسرةً، ولهفةً، وانتظاراً، ولكن الساحرة لم تيأس، لأني رأيت الأناملِ اللئيمة تدب فوق جلدة شكوة الجلد، وتدحرج الجسم الخفيّ كما تدحرج الخنفساء كرة الفضلة إلى جحرها. تدحرج بصبر، بمهارة، بتأنٍّ، كأنها تنسج بالأنامل، كأنها لا تستخرج كنزاً من بطن الشكوة، ولكنها تبدع كنزها، بأناملها، إبداعاً. كأنّها تصنعه للتوّ. كأنها لم تسافر معه في رحلة الوجد، كأنها لم تتمايل، ولم تطف به سماوات المجهول منذ الفجر. كأنّها تستدعيه من بلاد الخفاء كما تستدعي الرئيّة المهاجر في المرآة. كأنّ الجنين المحبوس في قمقم الجلد لم يولد. كأنّ ميلاد السرّ أعسر من نزول المارد في القمقم. كأنّ الخروج من بطن الأمّ أعسر من النزول من بطن الأم. كأن تكوّن الجرم فعل أيسر من الفوز بجرم الجرم. انبثق الجنين أخيراً! لم ينبثق انبثاقاً، ولكنه أطلّ من فم الشكوة كالأعجوبة. حدقة دسمة، بليلة، ناصعة، تحيط بها هالات الألق، والتبتّل، والجلال، تستفزّ في النفوس الوجل، وتوقظ في الأجساد شهوة. ابتلعت ريقاً عسيراً، وشاهدت الكرة تتدحرج ببطء الأجرام المكابرة، لتستقرّ في قاع ملعقة العود. لم تستقرّ في حفرة الملعقة طويلاً، لأن ملعقة الخشب تسامت بالكنز الرجراج، النديّ، الذي اعترضه الفم القبيح، المشقوق إلى ضلفتين ككعثب الأنثى، ليلتقمه، ليلتهمه، ليغيّبه، ليخفي بهاءه، وألقه، وبياضه، وجلاله، فدنّسه، وأفسد هالته، وانتهك حرمته وبكارته. غابت جوهرة المجهول، غاب سليل الخفاء، في ظلمة الجوف الكريه، الشره، المدنّس، الذي لم يلتقم لقمة إلاّ وقلبها دنساً، لتخرج من بين فكّيه دنساً، نجواً،

عذرةً، فضلةً كريهةً، لأن الفم، كعضلة اللسان، رسول إفساد. لأن اللسان وُجد ليدنّس الكلم، والفم وُجد ليدنّس النِعم.

لم أحتمل الدّنس ففززت من الخباء لا غيرة، أو احتجاجاً على المحاباة كما ظنّت الأمة، ولكن فراراً من الدّنس. كنت أرتجف، وأغالب الدوار والحمّى، عندما قطعت العراء، وركنت إلى قيصوم لأدفن في أحراشه القيء والغثيان والشنوءة. عاد الأب من أسفاره فوضع في الشقّ القبيح كنوزاً أخرى. رأيته يدسّ حبّات التمر، وقطع اللحوم المجفّفة خلسةً. ضبطته في إحدى المرّات فرأى في مقلتيّ كراهةً. طأطأ حائراً، ثم اختلى بي ليقول في حرج من ارتكب جرماً: «التوأم صاحب تيه. وأصحاب التيه غرباء. «أفانمان» في ديارنا مخلوق غريب، فلا تلمني». لم أمله. بل كدت أغفر. كدت أنسى حيلهم الصغيرة في التفرقة، في إيثار الشقّ عن الشقّ، في السموّ بالشقّ فوق رأس الشقّ درجات، في اصطفاء التوأم واجتثاثه من صلب التوأم، في سلخ الجسم الواحد عن نصفه الآخر، في اختيار ضلفة الحجر الذي انقسم إلى شطرين، للاحتفاء بالشطر، وإهمال الشرط الآخر، لإحاطة الشطر المختار بأجناس الحنان، والإلقاء بالشطر الآخر بعيداً في العراء. كدت أنسى حقّاً لو لم يأتِ الأب بتلك البهمة المشئومة. تلك الفتنة التي لم أرَ لبهائها نظيراً، فنسيت نفسي، وتصلبت قبالتها، كالنصب، ورحت ألهث، وأتعرّق، وأحدّق مبهوراً: جرم ضئيل في حجم الأرنب، يبرك بجوار الركيزة مشدوداً بحبل من أوبار الإبل. يركع بخطمه أرضاً حتى يستثير ذرات التراب، فتسمو وتتطاير في الهواء. تتلاحق في صدره الأنفاس في لهاث متتالٍ، من فتحة الخطم تتلألأ حبيبات بللٍ كنثار الطل على أعشاب الصباح. يستجيب زغب البدن لبلبلة

الوجيب برعشٍ كوسوسة العسلوج في هبّة الجربياء. في المقلتين الكحلاوين، الفاتنتين، إعياء، ودهشة، وحزن، وغموض. لا. لا. لم يكن ما رأيته مقلة. لم يكن ما رأيته عين: شق مستطيل، طويل، يفز منه كحل سخي، في سواد الفحم، مكسوّ بألقٍ خفيّ لم أعرفه في السواد يوماً، ممزوج بإيماء لا يُرى إلاّ في عيون الظباء؛ فلم أحتمل. لم أحتمل فبكيت. زلزلني الإيماء فدسست رأسي بين ذراعي وبكيت. بكيت طويلاً، وعندما أفقت وجدت الفتنة بين يدي القرين. لم أصدّق. شلّني الذهول طويلاً قبل أن أنسلّ خارج البيت. خرجت في نية للذهاب إلى التيه. خرجت من البيت كي لا أعود إلى البيت إلى الأبد. بتُّ ليلتي الأولى في الوديان الجنوبية. وبتُّ ليلتي الثانية في حضيض الجبل الأزرق. توسّدت ساعدي الأيمن، ودسست رأسي في حرجات كثيفة، وسافرت إلى التّيه. خرج لملاقاتي التّيه قبل أن أبلغ بلاد التّيه. عانقني التّيه في منتصف الطريق، لأن التّيه ليس وطناً يُدرك بالأسفار، ولكن التيه هو الأسفار. انتظرت أن يقبل جند الجنّ على المركبات المركّبة من ذيول الغبار، ليخطفوني كما خطفوا قريني يوماً، ليستبدلوني كما استبدلوا الشقي يوماً، ليطيروا بي إلى ممالكهم المجهولة، ويذهبوا إلى أهلي بأحد أبنائهم الأشقياء، بأكثر أبناء ملّتهم شقاء، بأكثر أبناء قبيلتهم عناداً، بأشدّ أولادهم وقاحةً، ومكراً، وعدواناً. يتركونه في مدخل الخباء بعد أن يلبسوه جلدي، ويلفّوه في ثوبي، ويضعوا في يمينه مدية يطعن بها الأب، وفي يسراه حجراً يدفع به الأمة، ليخطف بهمة الغزال بيد، ويختلس «أفانمان» من مرقده، من مرقدنا، بيده الأخرى، ويفرّ خارجاً ليمتطي هامة أول عجاجة عابرة ليأتيني. يأتيني ليعيد لي شقّي المفقود، نصفي الضائع، شطر جسدي الذي انسلخ عني، لأضمّه إلى

صدري، لأعيده إلى صلبي، لأسوّيه في جسمي، ليستوي في جسمي، ليستوي به جسمي، ليستوي به جسمه وجسمي، لنغدو، كما كنّا يوماً اختلسه منا النسيان، كلاً واحداً، جرماً واحداً، إنساناً واحداً، لا يخطفه أهل الخفاء إلاّ إذا خطفوا نصفه الثاني، ولا يحابيه الأب إلاّ إذا حابى معه نصفه الثاني، ولا تؤثره الأمة بكنز القشدة إلاّ إذا وضعت اللقمة في فم شطره الثاني، ولا تضمّ حسان القبيلة رأسه إلى صدورهن العامرة بالنهود والعطور والشهوة، إلاّ إذا ضممن رأس شقّه الثاني، ولا يخرج إلى العراء لقضاء حاجة، أو زيارة قريبة الأب، أو اللّهو مع الأقران، إلاّ إذا خرج برفقته جزءه الثاني، لأني... لأني على يقين خفيّ بأن «إيباتمان» هو «افاتمان»، و«افاتمان» هو «إيباتمان»، وانقسام بدنينا لم يكن إلاّ بخطأ دفين. سمعت الهسهة. سمعتها في صحو؟ أم في نوم؟ أم بين صحو ونوم؟ لا أدري. ولكني أحسست بإقبال المطايا. أيقنت بوصول أضياف الخفاء الذين سيأخذونني على مطاياهم إلى الخفاء، إلى وطنهم المجهول في دنيا الخفاء، فأخذتني رجفة، وحشرج في مقلتي الدمع. تململت وغالبت عجزاً قيّد أطرافي. تحرّرت من أسر الوهن الخفيّ، وفتحت عيناً. في الغلس المنضوح بزرقة شحيحة رأيت شبحاً ينتصب فوق رأسي، ملفوفاً في ألبسة أهل الصحراء، مقنّع بلثام مهيب، يمسك زمام المطيّة بيد يخفيها وراء ظهره. برغم عتمة الأغلاس تبيّنت زماماً مضفوراً بسيور الجلد المصبوغ بالألوان. سيور رقيقة حبكت بإتقان أدهشني. بحثت عن رأس الرسول فلم أجده. الرأس اختفى في الأعالي كما يليق برأس كل مارد جاء من بلاد الجنّ. رؤوس المردة الحقيقية لا تنزل الأسافل أبداً. رؤوس المردة الحقيقية تغيب في السموات لتحدّث الكائنات بالبرهان. لتحدّث الخلق بحقيقة المارد. فهل حان ميعاد السفر؟

رفعت رأسي بمهل. رفعت رأسي تأهباً للرحيل، فركع الشبح فوق رأسي، فسمعت صوتاً. صوت عرفت فيه نبرة الأب. صوت واهن دائماً كأنه ينطلق من بئر سحيق. صوت عميق، مكتوم، ولكنه صارم وخفيّ: «هل ظننت أنّك تستطيع أن تدرك التّيه؟ هل ظننت أنّك تستطيع أن تختار التّيه؟ ألا تعلم أن التّيه هو الذي يختارنا؟ ألا تعلم أن التّيه، كالقدر، لا نستطيع أن نختاره أبداً!». أردفني خلف السرج. أجلسني على المطيّة وانطلقنا. أخرج لي من الجراب قطعة من خبز الشعير. احتضنتها على صدري، ولكني لم أقضمها برغم جوعي. كنت أنتظر أن تطير المطيّة. كنت أنتظر أن تتلاشى الدابة وتتحوّل عجاجاً. كنت أنتظر أن يأتي المارد أعاجيب المردة فيبيد جرم اللحم والدم ليفرّ بي على جناح الهواء كعادة الجنّ. كنت على يقين أن الجسم الذي يملأ السرج أمامي ليس إلاّ رسول قبائل الخفاء أقبل عليّ متنكّراً في أثواب الأب ليستدرجني على عادة أهل الخفاء. الشبح لا يدري أني أوتيت علماً عن حيل أهله. الشبح لا يعلم أني أعلم حرص الجنّ على تجنّب إفزاع الإنس بالخروج لهم في أجسام الجنّ. الشبح لا يعلم أني أعلم الكثير عن حيل الجنّ، ونبل الجنّ. فأفرد أجنحة الغيب يا صاحب الغيب. أخسف دابة اللحم والدم، وسِرْ بنا إلى مُلْك الخبأة لأني لم أعد أطيق على ملاقاة الأسفار صبراً، لأني لم أعد أحتمل التأنّي، لأني لم أعد أقبل البقاء في صحراء غاب عنها قريني يوماً فاستبدل، وتبدّل، وفقد؛ لأني... لأني أريد أن أسترجع، في الأسفار، شقّي، حقيقتي، نفسي. ولكن الدّابة لم تتبدّل. العجماء لم تتحوّل غباراً، والغبار لم يتجسّد عجاجاً، والعجاج لم يشق فراغ السماء، وقلاع بلاد المجهول لم تغيّب قوس الأفق، والصوت المخنوق، الكئيب، الخفيّ، الذي يستعير نبرة الأب، تغنّى بالوصايا في سمعي:

«سليل الصحراء وُلد تائهاً، فلماذا تريد أن ترمي بنفسك إلى التّيه الثاني؟ ألا يكفي التّيه مرّة واحدة؟ ألا تدري أن التّيه الأوّل يأتي بنا، والتّيه الثاني يذهب بنا؟ ألا ترى ما فعله التّيه، يا شقيّ، بشقيقك التوأم؟». لم أصدّق. لم أصدّق أن فم الأب هو الذي ينطق بالوصايا. لم أصدّق حتى عندما بلغنا النجوع وخرجت لملاقاتنا الأَمَة. أقبلت علينا بخطو كالهرولة. ولكنها توقفت عندما اقتربت منّا مسافة أذرع. ترجّل الأب. ثم ساعدني على النزول أرضاً دون أن يُبرك البعير. تقدمنا راجلين، ولكنّها لم تتحرّك. لم تتحرّك حتى وقفنا قبالتها. كانت تسدل ستور الغموض على وجهها. تلك الستور التي تسدلها على وجهها عندما تبدأ عراكها مع الشكوة في الصباح. لم تتكلّم لأنها، ككل الحكماء، تعتقد أن الكلام انتهاك لحرم القول. لم تتكلّم لأنها تظن أن الكلم دنس اللسان. وربما تكلّمت يومها، ولكني لم أسمعها، لأني لم أعتد أن أسمعها تتكلّم. ولكنها... ولكنها فقدت وقارها وضمتني إلى صدرها الهزيل. ضمتني إلى صدرٍ مسوّر بهياكل العظام. صدر آلمتني فيه عظام القفص. ثم ... ثم التفتت إلى الأب وساءلته بإيماء في العين أكثر غموضاً من كلّ إيماء. هزّ الأب رأسه عجزاً، ولكنها لم تحرّك العضلة أبداً. لم تلجأ للتعبير باللسان أبداً. حدّقت في عين الأب لتكلّمه بالإيماء، لتوضح للأب لغة الإيماء. لتيسّر للأب المعنى في الإيماء، فسمعته يقول: «أدركته عند حيد الجبل الأزرق غرباً. بلغ باب التّيه، ولكني استعدته قبل أن يدركه التّيه. باب التّيه أيضاً خطر. باب التّيه ليس كالتّيه، ولكن مَنْ أدرك للتّيه باباً، أيضاً، ليس معصوماً. مَنْ ذهب ووقف على باب التّيه، أيضاً، مصاب، فارسلي في طلب الساحر ليدركه بالتميمة قبل حلول المغيب».

١٢

التأ الشقيق بعين التخابث، وهرش جُمّة شعره واعداً أن يأتي له بظبية أشدّ بهاءً من بهمته التي استغفلته، يوماً، ففرّت. ارتاد، بعدها، مهَامِه الأرض مراراً، وعندما عاد، في أحد الأسفار، فوجئنا بانطواء خباء قريبته، في الجِوار، ليقتحم علينا الخباء برفقتها. لم تجسر أن تقتحم علينا الخباء دون مراسم قران، ودون ترتيل التمائم المجهولة، بطبيعة الحال، ولكن الصفقة دُبّرت، كما تُدبّر المكيدة، في ستورِ ليلة واحدة: تحلّقت الصبايا في عراء الجاسياء جنوباً، وغنّت الشاعرات مواويل الأشجان، ورقص الفرسان بالنجائب حول الحلقة، وفي كسء الليل تولّت كاهنات القبيلة الأمر، فسحبن الجنيّة الملفوفة في ألحفة السواد إلى خبائنا، وهنّ يتكفّأن يميناً ويساراً، يتقدمن خطوة، وينكلن على أعقابهن خطوةً؛ يرتلن تمائم الأقدمين بلحون النواح، ويتوسلن الفطحل أن ينزل في رحم

الظبية خصباً، ولم يبلغن البيت ليضعِن كنزهن الملفوف في أردية السواد إلاّ مع أنفاس جشأة السَّحر؛ فاستيقظنا في الصباح لنجد الحيّة ترقد إلى جوار الأب في المخدع. تحلّقنا حول موقد الصبح، فغمز الأب بعينه، وهرش رأس التوأم، وأومأ ناحية الحيّة قائلاً: «هه، ما رأي وليدي في الظبية الجديدة؟ أليست أكثر حُسْناً من ظبيته الهاربة؟ هئ - هئ - هئ...». هأهأ في نوبة مكتومة، ثم تناول المِسْعر وحضأ الجمر في أرة النار كمن يداري بالحركة حرجاً مجهولاً. غرس المسعر عند الفوهة بدفع عنف. رنا إلى القرينة وأضاف بحبث: «عاهدتك أن آتي لك بظبيةٍ أبهى، وها أنا أفي بالوعد...». تبسّمت الظبية المزعومة بخفر عذراء، وشدّت اللحاف حول وجهها من الجانبين حتى غيّب وجنتيها وفمها، وانحنت تتلّهى وتخفي بهجتها بالثناء في لملمة حطام الحطب وبقايا الأعواد لتدفعها إلى الأرة لتغذّي النار. هذه هي حسنائي التي أردت أن أصير لها قريناً، يوماً، في لـمّة النساء. هذه هي الفتنة التي رأيت أن أستولي عليها قبل أن تفلت وتجد السبيل إلى مخدع الأب. هذه هي الظبية التي قررت أن أقتنصها في يوم كانت فيه الأم ما تزال على قيد الحياة لأحول دون نواياها في احتلال موقع الأم في مخدع الأب؛ لأني كنت طفلاً لا يعلم شيئاً عن سلطان طفولة تنافس الكهانة في إدراك شطآن النبوءة. لأني كنت طفلاً لم تحبسه الكاهنات العجائز في الظلمة، بعد، ليربئ لهن أخبار المهاجرين الذين غابوا في الأسفار طويلاً.

لا أكتم مولاي سرّاً إذْ أعترف بوجود الشَّبَه الخفيّ بين الظبية وامرأة الأب. لم أجد فيها سحر الظبية وحسب، ولكني اكتشفت فيها فتنة غامضة تذكّر بفتنة الحيّة. أوه، يا مملكة السماوات، ما أشدّ شبه هذا المخلوق الخفيّ، الفتّان، اللِعوب، اللئيم، المسمّى حسناء، بهامّة اسمها الحيّة! لا أدري لِمَ تنتصب

هذه الزاحفة أمام عينيّ كلما أبصرتُ فاتنة من فاتنات القبيلة. فهل السرّ في النعومة؟ أم في الفتنة، أم في الغموض، أم في سوء النيّة، أم في الحيلة ولؤم المسلك؟ ما أدريه أن رؤية الحسناء استفزتني دائماً، منذ ضنء الطفولة الأولى، منذ الخبأة التي لا أذكرها، إلى ليلتي هذه. تستفزّني، فتنتابني القشعريرة، وتتأجّج في جؤجؤي الشهوة. تتأجّج في الجؤجؤ شهوة الاستيلاء، لا شهوة العشق. شهوة العدوان، لا شهوة الحبّ. شهوة الانتقام، لا شهوة المريد الذي يتوسّل الوصل. يأخذني الهوى، وتزعزعني الحمّى، وتدفعني إرادة عاتية للالتحام باللعبة، للالتئام بالدمية، لتحطيم اللعبة، لتخريب الدمية لأني على يقين أن الدمية المميتة ستدمرني، ستسحقني، ستلدغني، ستفرغ في دمي سمّها الزعاف إذا لم أسبق إلى العدوان، وأكتم أنفاس أصل العدوان، لأن إلهاماً قديماً أخبرني أن الأنثى، كالحية تماماً، دمية خطرة لا تُمتلك إلاّ في نصل المدية، لا تُمتلك إلا في الموت. لهذا السبب كنت أخفي نواياي إزاء قريبة الأم يوم قرر معمعان النساء أن يزفّني إلى مخدعها. أو، بالأصحّ، حاولت أن أخفي نواياي الحقيقية. حاولت أن أبدي سيماء الوله الأبله الذي يتبدّى في مسلك كلّ ذكر أبله عندما يتطلع لنيل الأنثى. حاولت أن أبدي السيماء التي أضحكت النساء، ولكنها لم تضحك اللئيمة، أبداً. بل، ربما، أفزعت اللئيمة فأخفت عنّي سرّها أيضاً. لأننا، يا مولاي، لا نستطيع أن نخفي نوايانا الحقيقية لا على المرأة ولا على الحيّة. لأن اللئيمة، كأي أنثى، كأي داهية، كأي حيّة، كانت تعلم أن الرجل، كالطفل، مخلوق لا يستطيع أن يتملّك لعبته الأثيرة، إلاّ إذا استطاع أن يحطّم لعبته الأثيرة. خالجني يقين غامض منذ ذلك اليوم بأن الداهية كشفت سرّي، عرّتني، عرّت نواياي، قبل أن أتعرّى من ألبستي يومها لأدخل مخدعها قريناً، فضجّ

مجمع النسوة بالهرج والضحك. ضبطتني الجنيّة متلبساً بنواياي الخفيّة، فضمرت لي الشرّ، وبادلتني نيّة بنيّة. حاربتها، في الزمان الذي تلا، بأكداس الحجارة، ربما، تعبيراً، أو تنفيساً عن النيّة، عن العداء، عن رغبتي الطفولية، الجنونية، في انتقامي المتستّر. وعندما اقتحمت علينا الخباء، وضمت الخباء إلى الخباء، واحتلّت موقع الأم في مخدع الأب، في ليلة نزلت فيها الأنجم منازل النحوس، أحسست بالخطر، وأدركت أن القارعة لم تنزل إلاّ على رأسي، لأني قرأت في عينيها النيّة المضادّة، قرأت في عينيها ناموس المرأة، ناموس الأنثى، ناموس الحيّة التي لم تخلق إلاّ لتنتقم، الحيّة التي تنتقم حتى وهي ميّتة، لأن الحيّة، كالمرأة، لا تموت، لأن الحيّة، كالمرأة، تستعيد الحياة بعد موت، وتزحف لتقتفي أثر قاتلها، لتلدغ عقب قاتلها، لتدفن في حفرة القبر غافلاً أطمأنّ إلى فعلته جهلاً بطبيعتها، لأنه نسي أن الدمية التي لم نتقن تحطيمها لا بدّ أن تحطّمنا، لأنه لم يفهم أنه لا يكفي أن تقتل الحيّة، ولكن لا بدّ أن تحزّ رأس الحيّة من جسد الحيّة، إذا أردت أن تأمن شرّ الحيّة. حسدت القرين عند دخول بهمة الظباء إلى البيت، وعرفت، بدخول الحيّة إلى البيت، أن عليّ أن أفكّر في حيلة أحمي بها القرين من السعلاة التي سمّاها الأب «ظبيةً». يجب أن أفكّر في مكيدة أنقذ بها نفسي، وأنقذ شقّي، من كيدها. لأني رأيت خطراً صدّقته. لأنّي رأيت الخطر بالقلب لا بالعين، فصدّقته؛ لأني كنت، حتى ذلك الوقت، لا أصدّق ما أراه بالعين منذ تعلّمت من أمّي الصحراء الوصيّة التي تكذّب رؤيا عين لا ترى إلاّ ما جرت به البادية، ومنذ علمتني أمّي الصحراء الوصيّة التي تحذّر من كيد حيّة خرجت في أثر قاتل حاول أن يقتلها، فلم يصب منها مقتلاً، لأنه نسى أن يحزّ رأسها القبيح عن جرمها الأكثر قبحاً.

١٣

نوايا الداهية ترجع، في الحقّ، إلى عهد أبعد. نواياها ترجع إلى الزمان الذي اختارت فيه السير إلى جوارنا، كقرين السوء، تحطّ رحالها إذا حططنا رحالنا، وتنصب خباءها إذا نصبنا خباءنا، وتشدّ متاعها على ظهر دابتها، ما أن نشدّ أعباءنا على ظهور دوابنا. ذلك زمان لم أكن لمسيره شاهداً، ولكن المشاهدة للسيرة ليست، دائماً، شرطاً، لأن ألسنة الرواة لا بدّ أن تستعير عيناً لِتُرِي الأجيال وصايا الزمان. حدّثتني بالأمر الأمّ مرّة، وسمعت السيرة من فم الداهية نفسها مرّات، ووشوشت بها ألسنة أغيار القبيلة مراراً. بل وشهدتها بالعين، أيضاً، في أزمان الشدّة التي تفرّ فيها القبيلة من قساوة الحرّ في مرتفعات «تينغرت»، فتنزل الوديان السفلية، لتقضي مواسم الأصياف بجوار الآبار. يوقظنا رغاء البعائر التي تُناخ لتُشدّ على أجنابها الأحمال مبكّراً. في أرة النار نجد النار،

ولكننا لا نجد مَنْ رام أن يتحلّق حول أرة النار. في العراء يدبّ الرعيان والفتيان والأقنان ليتعاونوا في تقويض الفساطيط، وجمع الأوتاد والركائز والأعواد. النساء تتنقّل وتتنادى لتشارك في البلبلة أيضاً. الإماء تتراكض في كلّ ركن لتجمع الحوائج، وتحشر الأواني في غرائر الأوبار، أو أكياس الجلود، أو أجواف المتاع. قد يوقظنا الهرج، وقد يوقظنا صقيع الفجر عندما يقرّر الوالد أن ينزل بنا الجزاء عقاباً لنا على تلكوئنا في الاستيقاظ، فيأمر الأَمَة أن تنضح على وجوهنا قطرات الماء، فإن تشبّثنا بوفائنا للأرض، زعزع الخباء من أركانه، وخلع الأعمدة، لنجد جسدينا نهباً لجشأة الفجر التي تستطيع، بقساوة صقيعها، أن تحيي حتى أمواتٍ صيّرت الحفر عظامهم رميماً. نهبّ بفزع الملدوغ، وندبّ في الدمن دبيب التائه، أذهب إلى هذا الجانب بعينين مغمضتين، ويذهب القرين إلى الجانب المضادّ بعينين مغمضتين، نرتطم بالأوعية والأواني وحوائج الرحيل التي تستلقي في كلّ شبر، فلا يرتدّ أحدنا إلى ناحية الآخر إلاّ في اللمح الذي يشدّنا فيه الحبل الذي شددت به يدي إلى يد القرين خوفاً مني أن يتركني في الليل وحيداً، ويفرّ إلى وطن المجهول. يعيدنا الحبل إلى بعضنا البعض، ولكنه لا يعيدنا إلى الصواب. قد يرتطم رأسينا، فنتناطح تناطح التيوس، فنهرش جمجمتينا، ولكننا لا نفيق إلى أنفسنا، وندرك ما يدور حولنا في العراء، إلاّ بعد عناد طويل. نستجير بالنّار من بطش الصقيع، نتخاطف ألسنة اللهب بأيدينا لنستدفئ قبل أن نمدّها لنتناهب الإفطار الذي تركته لنا الأمّة بجوار الموقد. نتناهب شقّ الخبز، وقد نتناطح مرّة أخرى ونحن نتنازع قعب الحليب. ساعتها نفتح على الفراغ عيناً. ساعتها تدب الحياة في أبداننا ونبصر البلبلة التي اقتلعت وتد القبيلة من قلب الصحراء. ساعتها نرى، في غيهب السحر،

أبناء النجع أشباحاً تتراكض، وتتهارج، وتعاند دواب الأعباء. ساعتها نتلفّت حولنا لنكتشف السر. ساعتها نرى بيتنا فننكر بيتنا لأنه انقشع وانقلب شتاتاً. ساعتها ندرك أن القطع المتناثرة في كل شبر هي أشلاء بيتنا المنهار. نرى الحوائج اعضاءً كانت بالأمس، فقط، أعضاء ألفناها وأحببناها في جسد البيت الضائع. نرى أعمدة الهيكل مطروحة هنا وهناك، نرى الأعواد التي كانت للبيت هيكلاً وجرماً وقفص صدر. نرى الأوتاد مشتتة. الأوتاد التي كانت للبيت أقداماً لا يجسر على منازلتها مارد الريح. والركيزة التي كانت للبيت صُلباً، وسنداً، وحَرَماً، تستلقي، بالجوار، كجذع اقتلعته الريح. الركيزة التي تعلّقنا بساقها صغاراً، وشدّت من أزرنا عندما كنا نتعلّق بها لنتعلّم المشي، وشدّتنا إليها الأم، بحبال المسد، كي لا نهرب إلى التيه، وغرست الأم، ومن بعدها الأمة، أنصال المدى في أصلها، لتحمينا من مكائد أهل الخفاء ليلاً، وتشبثنا بجذعها، ودرنا حول أنفسنا، فحسّستنا بأجسامنا، بأرواحنا، بقوانا، فقوّمت فينا العود، وأشعلت فينا الشهوة إلى اللّهو. ها هي الركيزة تستلقي حطاماً، فينقلب البيت، حطاماً. ينقلب البيت، ينقلب العشّ الذي أطعمنا دفئاً ولهواً وخبزاً، وآمننا جوفه من خوف وجنّ وصقيع. شِلْوٌ هنا، وشِلْوٌ هناك، قطعة هنا، وقطعة هناك، عضو هنا، وعضو هناك، عظم هنا، وعظم هناك، فأيّ ذئب هذا يستطيع أن يفعل بجثة الشاة، ما يفعله نداء الظعون ببيت انتصب في الخلاء آمناً، فاقتلعه مَنْ لا يملك للتخلّي عن العبور سبيلاً؟ يذهب الأب ليتولّى أمر الأقرباء أوّلاً. يذهب ليؤدي عملاً رآه الناموس للوصل بين الأرحام واجباً. نراه يعاند الفحل العدبس الذي اصطفته قرينته ليكون لرحلها راحلةً. كان جملاً موحشاً، بشعاً، غليظاً، لم نعرفه، ولم تعرفه المراعي، إلاّ هائجاً في مواسم قرع النوق، وفي غير

مواسم قرع النوق. يدمدم صدره بزئير كقصف الرعود الشتوية، ويدلي في الفراغ شقشقةً في حجم شكوة الحليب، قانية بحمرة تفوق لون الدم احمراراً، يفترس بأنياب بارزة كأنياب وحوشِ الأدغال كل جمل أو بازل، أو تلب، أو جدع، أو تنيّ، ولا تنجو من عدوانه حتى الحيران. يستقرئ أكفئة النوق بمشفره المزروع بزغب كأشواك النخيل، وينصب خطمه في الهواء ليستلهم أنباء اللقاح. وقد أكّد الرعاة أن الاستقراء للعدبّس الكريه ليسِ إلاّ حيلة اعتاد الداهية أن يخدع بها أهل الفرجة، لأنهم جرّبوا أنه لا يفرّق بين ناقة لم يعل هامتها فحل، وبين ناقة تهدهد في البطن جنيناً. وقد رأيناه مراراً يكشف عن أنيابه الفظيعة، ويصرع ضحاياه بهجمة وحشية، ويعتلي الناقة، أو القلوص، يزمجر، ويتقيأ كتل الزَّبد، ويلفظ من فمه تلك الشقشقة الرهيبة، فتتملّص الدابة تحته، وتحاول الإفلات، فيهوي على رقبتها بالأنياب، فتتشكّى، وتتوجّع، ولكنه لا يكفّ عن ملاحقتها وسحقها بكركرته، حتى ينقلب النهار، وتميل الشمس إلي الغروب. ولكن الوحش الفنيق كان للمرأة مطيّة مفضّلة. تشدّ عليه رحالاً حاوية في الرحلات التي لا تنأى كثيراً، أو في المواسم المنعشة التي لا تتسلّط فيها الشموس؛ في حين تنصب فوق ظهره هودجاً في الأسفار الأبعد، أو في مواسم طغيان الحرّ. ويتندّر أهل الفضول، بلسان العلن، كيف فرّ بها مرّة في وقتٍ من تلك الأوقات التي تملّ فيها الفحول القرع، وتشمئزّ من الأنثى، فتفرّ من النوق، فرار الظباء من شبح إنسان، كما تندّروا قبلها، بلسان السرّ، كيف فرّ منها قرين السلالة المجهولة. ويُقال أن دهاة كثيرين حذّروها من مغبّة ركوب فحول لم تأمن الأجيال جانبها حتى في أزمان الدّعة والتسليم، فكيف بمواسم الشهوة والعنف والهياج؟ ولم يفت القوم أن

يعيدوا في أذنها وصيّة الناموس التي صارت تميمة بالتكرار: «لا أمان لثلاث: العبد، والفحل، والوادي». ولكن جنيّتنا، يا مولاي، كانت تخبّئ في رأسها وصايا أخرى تختلف عن وصايا ورثتها الأجيال من أسلافها في الناموس المفقود، فعاندت، وخالفت، لأن الجنيّة لا بدّ أن تستنير بوصايا الجنّ، لأن الجنيّة لا بدّ أن تمتطي مطايا الجنّ، لأن الجنيّة التي عجزت أن تغلب في طبعها عرق الإنس، وتسرج الريح لتتخذها مطيّة، كما يفعل الجنّ، لا بدّ أن تفتّش عن دابّة يسكنها الجنّ لتشدّ عليها الرحل، وتتّخذها مطيّة، لأننا كلنا نعرف أن البعائر كانت لقبائل الخفاء مطايا منذ زمان الفطحل. لأننا حتى نحن، صغار الصحراء، كنّا نعلم أن القبائل الخفيّة التي اتخذت من بقيّة الإبل مطايا، قد اختارت الجمال الهائجة سكناً. فبأيّ حيلة تنجو الجنيّة من كيد دابة اصطفاها الجنّ لتكون لهم سكناً؟ انتصبت المسكونة فوق ظهر الجرم المسكون، امتطت المخلوقة الممسوسة كاهل المارد المسكون، فتنقّل اللئيم برحلها، وهدهدها، كما تهدهد الأم وليدها، حتى استأنست واطمأنّت، فاستغفلها في يومٍ استيقظ فيه الجان، وتملّكته النوبة، واشمأزّ من ولوج أرحام الإناث، فقرّر أن يتحرّر، ففرّ. قرّر أن يتطهر فاختطف على ظهره أنثى لتكون له في الفرار رهينة وأنيساً. طاردهما الرعاة جريًا على الأقدام. انطلقوا في أثرهما مسافة طويلة جداً. آيسوا فنكلوا على الأعقاب. أدركوا المضارب بعد يومين. كلّموا الأكابر بيأسهم، فضرب الدهاة الأكفّ بالأكفّ وعجبوا: «وهل بمقدور الرعاة أن يدركوا فحلاً أفلت من أسر النوق؟ متى كان الرعيان الأشقياء يستطيعون أن يدركوا قريعاً اشمأزّ وقرّر أن يتحرّر من أغلال الأنثى؟ اطلبوا الفرسان! هذا شأن الفرسان لا الرعيان!». انطلق الفرسان. انطلقوا طويلاً. اهتدوا بالأثر،

ولم يتوقفوا لا آناء الليل ولا أطراف النهار. طاروا طيران العجاج، وبرغم كل ما أتوا من تجريب الحكماء، وحماس الشعراء، ومس العشاق، إلاّ أن مطيّة الجنّ أفلتت. لم يدركوا الفحل، برغم أنهم أدركوا صاحبة الفحل مطروحة في مهمهٍ ساجع، مهجور، مفروش بصفوف حجارةٍ رماديّة أبديّة. ألقتها المطيّة الجنونية هناك، وواصلت سفرها الجنوني. عاد بها الفرسان بعد أيام، فمكثت طريحة أمداً طويلاً، لأن المجازفة كلّفتها كسوراً في الجسد، وهلعاً في النفس كان وقعه عليها أسوأ من كسور الجسد. أمّا المطيّة فقد خرج في بغيتها رعاة بعد زمن، سافروا إلى أبعد الصحاري، ونزلوا أوطان قبائل أخرى، وساءلوا أصحاب القطعان، وتجّار القوافل، وأهل السبيل، وطلاّب الكنوز، ولكن الضّالّة لم تقع للخلق على بصر، فأيقن البغاة أن مطية الجنّ، التي يسكنها الجنّ، لن تكون جديرة بأن تكون مطيّة سلالات الخفاء، إذا لم تلتجئ إلى الخفاء؛ فعادوا إلى النجوع خائبين. ولكن دابة الجن عادت إلى رباع القبيلة طوعاً. دخلت مراتع القبيلة يوماً، وحيدة، مكابرةً، عنيدةً، تدمدم بالزئير المنكر، وتفترس الفحول يمنةً ويسرةً، وتلفظ، مع اشتات الزبد، شقشقتها المنفوشة، القانية، وتطارد النوق لتطحن أجسامها الضامرة بكلكلها الفظيع. فهل يستطيع مولاي أن يخمّن ماذا فعلت سليلة الجنّ؟ هرعت إلى مطيتها بلهفة عاشقة، وأحكمت حول رأس الوحش اللجام، وشدّت فوق ظهره رحلاً بمساعدة الرعاة. فهل هذا عناد أنثى، أم إرواءً لظمأ تحدّي الإنسان لإرادة القدر، أم هو خصلة من تلك الخصال التي عرفها أهل العرفان في سلالات الجان؟

لا أحد يدري.

١٤

ظبية الأب ادّعت أنها وُلدت ظبيةً، وعاشت ظبيةً، وكان بالإمكان أن تحيا ظبيةً إلى الأبد، لو لم يستدرجها الأبّ إلى خبائثنا لتكون بديلاً لظبية قريني الهاربة. ولكن خبثاء القبيلة (هذه الملّة الرهيبة التي لا تُخفى عليها خافية) رووا عن الظبية سيرة أخرى. الخبثاء قالوا أن الظبية وُلدت ظبية حقًا، كما تولد كلّ فاتنات الصحراء، ولكنّها ما لبثت أن فقدت هذا اللقب النبيل عندما ضمّت في أحضانها رجلاً. وبرغم أن المرأة لا تستطيع أن تنكر رجلاً نام في أحضانها يوماً دون أن تخاطر بتكذيب الناس لها، إلاّ أن ظبية الأب أنكرته بعناد يدعو إلى الإعجاب، ونفت، باستعلاء، أيّ قران، بأيّ رجل. ولكن بسالة الجنّية لم تردع الخبثاء، لأنّهم تحدّثوا عن السيرة بالتفصيل، فقالوا أن هذه المرأة الغامضة عرفت قريناً خفيًا ينتمي إلى ملل الخفاء، ولم تلتحق بركب القبيلة، وتجاور ركاب

الأب في رحيله، وفي استقراره، إلا بعد أن أذاقته هولاً لم يذقه من نساء الجان، فتسلّل من فسطاطها في ليلة ظلماء عوت فيها أصوات العجاج، وقفز على ظهر زوبعة هوجاء، وفرّ من الصحراء إلى الأبد. قالوا أن الرجل نزل أرض أهلها متنكّراً في ألبسة أرباب الخلاء المكابرين، وأخذها من عشيرتها لينقطع بها في المفاوز الهاجعة بين «تينغرت» غرباً، و«تارات» شمالاً. أسكنها أرض المغاور التي كانت لأسلاف الجنّي وطناً في القِدمة. يتركها في الأحاضيض وحيدة، أو يسكنها كهوف السفوح، أو قيعان الوديان السفلى، ويذهب ليتسلّق الأجبل المجاورة؛ يتفحّص الأضرحة، أو يلج الأفواه العليا، أو يتفرّج على الأشباح التي حفرها الأوّلون على ألواح الصلد، أو يتخاطب مع عشيرته الخفيّة بالصوت المسموع، أو يلهو بترديد اللحون الشجيّة، ولا يعود إلى أحضان القرينة إلاّ بحلول الغيهب. يعود باسماً، سعيداً، شرهاً إلى العناق. يلقى لها بطريدة ودّان، أو غزال، في كل مرّة، ويضع في يدها حفنة تبر، وفي أقوال أخرى، قطع ذهبية يحرص على أن يكون عددها فردياً لسرّ لا يعلمه سواه، ثم يضمّها إلى صدره، ويطفئ النار برفسة من حافره الكريه، قبل أن يبدأ معها طقوس عناق جنوني محموم يستمرّ حتى يتنفّس الفجر جشأته الأولى.
أجل، يا مولاي، أجل. فقد تحدّث الأشقياء عن الحافر القبيح أيضاً. تحدّثوا فقالوا أن أمره لم يفتضح إلاّ بسبب الحافر. لأن الداهية استطاع أن يخدع أهل الشقيّة في كل شيء، واحتال لإخفاء حافريه بحِيلٍ شتى، فأحكم جلدة المداس على قدميه إحكام المغالاة، ولفّ فوقها رقعاً جلديّة أخرى، ورفض أن يتحرّر من المداس في المجلس عندما استضافه الأكابر، ونحروا على شرفه رؤوس الأنعام، ولكن الحافر كانِ يهتك الرّقع، ويفضح كل التدابير، لأن الحافر لأهل الخفاء قَدَر؛ لأن الخفاء

عندما أوجد في الصحراء الخلق، رأى أن يجعل بين الأمم حدوداً، فوصم كل قومٍ بعلامة. أودع في الإنس دهاءً كان للجان جبلّة، ووسم أبدان الجان بحوافر الحيوان ليميّزهم عن عشائر الإنسان. ولهذا السبب يُقال عن إنسان فقد الدهاء حيواناً، ويُقال عن جنّ فقد في قدميه حافر الحيوان إنساناً. صاحبنا المغلوب بعشق صاحبتنا استطاع أن يستعير بدناً من أبدان النبلاء، وهامة ماردة لم تنقص قامات الجن يوماً، ولهجة أهل الخلاء، ولكن غلبه الحافر. فشل في تدبير أمر الحافر فاحتال عليه بالإخفاء. ولكن هيهات. . كل شيء يمكن أن يُخفي، كل شيء يمكن أن يُستعار، كل شيء يمكن أن يُحتال عليه، إلاّ القدر، إلا إرادة القدر، إلاّ علامة القدر، إلاّ السيماء المجهولة التي وضعها المجهول رسالة في أعناق دُماه المسماة خلقاً. يؤكّد الرواة أن الدعيّ جاهد بمرارة لإخفاء العلامة. ولكن الرباط كان يتقطّع، والرقع تتشقّق، وتنفلق، فيفزّ من لفافات الجلد الحافر المنكر أمام أعين الأكابر. يحتال مرة أخرى، فيتربّع، وينزل أثوابه الفضفاضة على قدميه، فيستطيل الساق، ويتهتك المداس، وتبرز من الستور الحوافر، فلا يجد الشقيّ خلاصاً إلاّ في الفرار. يتحجّج المسكين بوجع عارض، وينسحب معتذراً. ولا يعرف أحد كيف قَبِل أهل الفتاة أن يربطوا مصير ابنتهم بمصير رجل مريب أتاهم متخفّياً، فأبى الخفاء إلاّ أن يفضحه ويخبرهم بهويته الحقيقيّة. ويُروى أن الفضل في إتمام الصفقة يرجع إلى ذلك المعدن اللئيم الذي كان وسيطاً لعقد كل صفقة. أغدق الجنّي بالذهب على القوم بسخاء، فسكتوا. أغدق سليل الجان على القوم بعملة الجان فقبلوا، وساقوا إلى مخدعه الحسناء قرباناً. ظنّ الأبله أنه خدع القوم، وخطف من ديارهم درّة القوم. ظنّ الأبله أن الاستيلاء على الحسناء فوز، وغاب عنه أن صاحب الحسناء لم يفلح

يوماً، ولن يفلح يوماً. غاب عنه أن كسب الحسناء خسارة حتى لو نافست الأقمار بهاءً. غاب عنه أن ربّ الحسناء لا ينجو حتى لو امتلك كنوز كل الصحاري. غاب عنه أن قرين الحسناء لا بد أن يهلك بيد الحسناء لأن الفتنة هي الطعم الذي يستدرج به الخفاء الأقران إذا أراد بهم شرًا. لم يطل بصاحبنا الهناء، لأن الصفقة ما لبثت أن تحوّلت ورطة بعد زمن لم يدم طويلاً. كشفت الحيّة (التي تنام في قلب كل حسناء) عن أنيابها، وبدأت تفرغ في القرين سما يوميًا. في البدء أبدت سعادتها بالانقطاع، وغنت له في الليالي أشعاراً في مديح الخلوة، ولكنها نسيت بهجتها بالعزلة بعد يومين، فتشكّت من الوحشة، وتكلّمت عن الحنين إلى القبيلة. أعادها لزيارة الأهل، وسافر على أن يعود بعد أمد. ولكنّها أدركته برسول يحمل رقعة قبل أن يبيت ليلته الأولى. قالت في الرقعة أن الخلوة فردوس، وليس في ربوع القبائل غير الحسد والكراهة والنمائم. توسّلته أن يعود ليأخذها إلى فم التنّين إذا شاء، فلا شكّ أنه سيكون بها أرحم من شرور ذوي الرحم. نكل على عقبيه، وأردفها على المطيّة خلفه. في الفراش رمت بنفسها عليه تلهّفاً على أجناس العناق، فافترشها وعاندها حتى لفحت الجشأة جسديهما العاريين بأنفاس السَّحر. في الصباح بكت بمرارة، وقالت إنه لا يستمتع ببهائها كما يجب أن يستمتع الرجال بجسد الحسناء، ولكنه ينكّل بها، في المخدع، تنكيلاً. طلب منها الغفران وهجرها في الفراش ليلتين. رمت بنفسها عليه وبكت بمرارة أكبر. قالت إنه خطفها من بيت أهلها، واختلى بها في مهامه البيداء، لا ليذيقها شهوة لم تخلق الحسناء إلاّ لتذوقها على يدي الرجل، ولكن ليهجرها، ويعذّبها، ويجافيها. أحكم ذراعيه حول جسدها، وعاندها حتى مطلع الفجر. بعد أمد اشتكت من الوحشة مرّة أخرى، وعندما

رفعت إليه بصراً مشوّشاً بالدمع، ورأت في عينيه شقاء يعجز لسان أهل الصحراء أن يجد في اللغة له نعتاً، انهارت، وتلوّت أرضاً، وانتحبت قائلة إنّها لا تستطيع له فراقاً، ولكنها لا تعرف ماذا تريد. لا تعرف ماذا تريد اليوم، كما لم تعرف ماذا تريد بالأمس، وسوف لن تعرف ماذا تريد إلى الأبد. ساعتها أدرك الشقيّ أن الحسناء خلقت لتكون للرجل قصاصاً مميتاً. وإذا كانت الحسناء قصاص رجل يشاركها نفس الملّة، فإنها قصاص مرّتين عندما يكون أحد الطرفين من سلالة أخرى.

غالب الشقيّ همّه، وحاول أن يستعين على القارعة بالنسيان، فأطال الغياب في الجبال، ولكنه لم يفلت من أسر الجنّية إلاّ بعد مرور أمد طويل.

الرواة أكّدوا أن الجنّية أسرّت بالسيرة لقرينتها الأثيرة بعد أن استحلفتها بأن تكتم السرّ، ونسيت أن المرأة تستطيع أن تحتمل في بطنها الجنين شهوراً، ولا تستطيع أن تحتمل في فمها السر ساعة.

١٥

منذ عرفت الصحراء عرفتها إلى جوارنا. منذ رأيت الصحراء رأيتها. منذ صار الضياء في عيني بهجة، كانت لمقلتي غشاء. منذ عرفت الخشية، وأنبأني المجهول بالكيد المجهول، اكتشفت في طلعتها نيّة مبيّتة وكيداً مجهولاً. كانت فتنةً للعين حقّاً، ولكنها للقلب هرج وبلبال وسمّ. بل أستطيع أن أجزم أنّي لم أتبيّن أمرها المبيّت إلا لعلّة الفتنة. لأن الصحراء علّمت الأبناء أن الفتنة لا تصير فتنة بلا سبب. الفتنة لا بد أن تخفي أمراً إذا كانت فتنة حقيقية. الفتنة إيماء السرّ المبهم. الفتنة قناع الأمر المبيّت. لم أستطع أن أقرأ طلسم الإشارة، ولكني أحسست بالخطر. الخطر على الأب، الخطر على الأم، الخطر على القرين، الخطر على بيتنا بأسره. الخطر علي أنا. رأيتها في الليالي تطاردني. طاردتني في جسم سعلاة كثيراً. تتنكّر بمهارة، وتخفي وجه الفتنة عنّي، ثم تركض

ورائي ملفوفة في الأثواب المستعارة. تلاحقني بيدين عاريين من اللحم، وعندما تدركني تتحوّل إلى حيّة كريهة، إلى حيّة تنمو وتتواصل في جسم الأفعوان، والأفعوان يستعير جسم تنّين، والتنّين يرتفع في الفضاء ويتهدّدني من أعلى بأنياب فظيعة. وعندما يقع بصري عليها في الصباح أرى في عينيها الخبر. أرى في عينيها الإيماء. أرى في عينيها البسمة الماكرة تنطق بالخبر اليقين. تعترف السعلاة، في بسمتها الغامضة، بفعلتها. تعترف فتقول أنها لاحقتني، وسوف تلاحقني، وستدركني. تقسم أنها سوف تدركني يوماً. إن لم تدركني البارحة، فسوف تدركني الليلة. وإن لم تدركني الليلة فستدركني بعد ليلة. تقسم بيقين السعالي أنها ستنالني يوماً. تقسم أنها ستنتقم. وستنتقم لأني الوِحيد الذي وقف على سرّها. والسعالي سلالة لا تغفر ذنب من وقف لهنّ على سر. السعالي تقتصّ من أصحاب السرّ. من الأولاد الأشقياء الذين يفكرون كثيراً، ويفسدون على السعالي نواياهنّ. الأشقياء الذين يخفون في صدورهم نوايا أيضاً، ويظنّون أنهم يستطيعون أن يفلحوا في الإفساد على السعالي النوايا. قالت أيضاً، في بسمة الخبث والغموض، أنها كشفت أمري أيضاً، لأن السعالي ملّة لا تخفى عليها خافية. قالت إنها رأت في عيني الكراهة، وينبغي أن أدفع ثمن الكراهة، لأن الكراهة هي الثمن الذي يُدفع مقابل الكراهة، فاعترفت. اعترفت لها في بسمة التحدّي بالكراهة. قلت لها إنها لن تفلح في تدبير مكيدتها ما دمت أدبّ على ظهر الصحراء. قلت لها إنها لن تنالني، ولن تنال الأب، ولا الأم، ولا القرين، ولا البيت، لأني قررت أن أمتلكها. لأني.. لأني قرأت في لوح المجهول أن السبيل الوحيد لدرء خطر الفتنة هو الاحتماء بالفتنة. الاستيلاء على الفتنة الشرط الوحيد للاحتماء من سلطان الفتنة،

امتلاك الفتنة الخطّة الوحيدة للنجاة من هول الفتنة. لأننا لا نمتلك ما نحبّ أن نمتلك، ولكننا لا نحبّ أن نمتلك إلاّ ما نكره أن نمتلك؛ لأننا لا نحبّ أن نحكم في قبضتنا، إلا ما نريد أن نحطّمه بقبضتنا. لهذا السرّ فهمتْ نواياي يوم طلبتُ في مجمع النسوة أن يأتين بها إلى مخدعي قرينة. فهمتْ أن المخدع حيلة للإيقاع بالقرين لا لتعشّق القرين. فهمت أن المخدع مذبح القرين، لا فراش معاشرة القرين. فهمت أن القرين، في المخدع، دائماً قربان، دائماً أضحية، دائماً مخدوع، دائماً مهزوم، مهما تظاهر بالفوز، والفلاح، والسعادة. فهمت أني أريد الإيقاع بها، قبل أن توقعني في أشراكها. فهمت أنّي دسست المدية في كمّ جلبابي، وسوف أجرّها على نحرها عندما تأخذني في حضنها لتذيقني الشهوة المميتة. فهمت أني أعشقها، لأني أسنّ نصلي لأدسه في نحرها. فهمت، لأنها حسناء، والحسناء، يا مولاي، أوّل من يعلم أننا لا نميت إلاّ من نحبّ.

١٦

ـ أكل أمّه، وسيأكلنا كلّنا!

هكذا وشوشت في أذن الأب. هكذا وشوشت في أذن الأَمَة. هكذا وشوشت في أذن القرين. هكذا وشوشت في آذان النسوة. هكذا وشوشت في آذان الصغار؛ فلم أعرف كيف اصطفتني، دون الأب ودون القرين، لأكون سبباً لهلاك الأمّ. لم أعرف، في البدء، لماذا اختارتني للشؤم، أنا الذي لم أكن في البطن سوى زاوية في بنيان الجنين، سوى ضلفة في كرة الثمرة. ألأنّي سبقتُ شقّي بعشيّ؟ أم لأنّها اختارتني لحملتها قرباناً يوم عرفت سرّي؟ ألا تدري اللئيمة أن من أُكل الأمّ لست أنا، ولكنّها هي؟ أتضع الحبل في رقبتي كي تُبعد الشبهات عن نفسها؟ أتتغابى وهي أدرى بأنها لم تجاور الأب يوماً إلاّ لتستولي على الأب؟ ولو لم تجد هوىً في نفس الأب، هل كان الأب يجرؤ على جرّ النصل في نحر

امرأته حتى لو نذرت نفسها قرباناً لألف إله؟ ولو لم يتطوّع الأب لجرّ النصل على رقبة الأم، هل كانت الأم تطمع في أن تجد، في الصحراء، مخلوقاً واحداً يتجاسر ليجرّ النصل على رقبتها؟ المكيدة من صنع يديها منذ البدء، والدسيسة أتقنت حبكها بيديها، فصارت الأم ضحيتها لا ضحيّة إله الضريح، وسيصير الأب أضحيتها أيضاً بعد أن وقع في يديها، وسيغدو القرين المسكين (يا للهول) ضحيتها أيضاً. لن يصبح ضحيتها وحسب، ولكنها ستسرقه منّي، ستسلخه من لحمي، ستجتثّه من جوفي، ستسحبه من دمي، وستتركني هيكلاً خاوياً من عظام. ستتركني جثماناً يدبّ على قدمين. ستتركني بلا إرادة. وإذا فقدت إرادتي، صرت دمية. وإذا صرت دمية انقلبت بين يديها ألعوبة. وإذا انقلبت بين يديها ألعوبة حقّقت الغلبة، ونصبّت نفسها على الحياة سلطاناً. ها هي تتستّر لتخفي المكيدة. ها هي ترشو القرين بحبّات التمر. ها هي تستميل الشقيّ بالقشدة والجبن وقعب اللبن. ها هي تستدرج المسكين لتدقّ الاسفين بيني وبين القرين. ها هي تضع حجر الركن في بنيان المكيدة. ها هو القرين يتبرم، وينتفخ، وينفض من حولي. ها هو يمتلئ حقداً ودماً وقبحاً كلما تقرّبت إليه بدعابة، أو لجأت إليه في حاجة. ها هو يتملّص بخشونة الدهاء، ويفلت بعيداً، ما أن اقترح الرفقة للعب في الخلوة.

أمّا الأب فقد وقع في الأسر في عهد أقدم. الأب باع نفسه لها في المخدع يوم تسللت لتندس تحت الأغطية، كالحيّة، لتنام الى جواره في المخدع. الأب باع نفسه لها قبل أن تجد الطريق إلى المخدع. الأب تنازل لها عن رقبته يوم وضع قلبه في يدها رهينة. الأب ركع يوم انتجأته بعين الإغواء، فأيقظت في نفسه مارد الشهوة. الأب سلّم الزمام (زمامنا كلنا) ليدها يوم قبل في ركن الخباء الحيّة ليخاطب القرين قائلاً إنه أتى له، بدل

ظبيته الهاربة، ظبية. اشترت في الخباء الكلّ، وانتزعت زمام الأمر، وترصّدتني بالكيد، لأني صرت عقبة أخيرة. أنت تعلم، يا مولاي، أن أهل الغلبة قوم لا يطيقون العقبة. أهل الغلبة يفقدون صوابهم أمام العقبة الأخيرة. أهل الغلبة الذي غلبوا كل عقبة يركب رأسهم الجان إذا اعترضت سبيلهم عثرة تمنعهم من تحقيق الغلبة. الجنيّة، أيضاً، ركبها الجان، لأنها رأت في عنادي عقبة. الجنيّة ركبها الجان لأنها ذاقت حلاوة الغلبة، ولكنها، بسببي، لم تبلغ ذروة الغلبة. لهذه العلّة استشرت الجنيّة. لهذه العلّة كشفت عن كيدها الجنيّة. لهذه العلّة اشتدّت حملة الجنيّة، فكيف السبيل إلى الدفاع عن النفس؟ هل أنتظر حتى يجرفني السيل؟ هل أمكث في ساحة الخطر مكتوف اليدين والرجلين؟ هل أركن للاسترخاء حتى يستغفلني المارد الذي يحبك التدابير ليخسف بي أرض الصحراء؟ قفزت، في الحال، إلى الحجارة. قفزت إلى الحجارة، لأن الأعزل لا يملك، في الصحراء، سلاحاً غير الحجارة. قفزت إلى الحجارة، لأن الحجارة، للأعزل، كنز في متناول اليد دائماً. قفزت إلى الحجارة، لأن الحجارة أنفس لقية في يد أعزل يحارب الكيد. قفزت إلى الحجارة، لأن الحجارة هي التميمة التي تضعها الصحراء في رقبة من تخلّت عنه الصحراء. رجمتها بالحجارة. رجمتها بالحجارة كل يوم، كل صباح، كل مساء، كلّ عشيّ، كل ظهيرة. رجمتها بالحجارة لأسكتها. رجمتها بالحجارة لأوقفها عند حدّها. رجمتها بالحجارة لأنزع سلطان اللسان من فمها. رجمتها بالحجارة لأحشرها في الركن. رجمتها بالحجارة لأكسر تقدّمها، لأحيل هجومها دفاعاً. ولكن الجنيّة احتالت على الحجارة. الجنيّة اعتادت حجارتي حتى قبل أن تدهم الفسطاط. الجنيّة تلقّت حجارتي منذ زمن بعيد، فتصدّت لها

بأطراف اللحاف. أكسبها التجريب مهارة، فاتّقت القذائف بترس اللحاف. لا أنكر أن الوابل يزعزع كيانها، ويربك خططها، ولكن الفزع لا يفقدها الصواب، ولا يردعها عن الكيد، فهداني الإلهام، إلى سلاح أفظع، للدفاع. وجدت السبيل الى الشنّ في الزاوية، واستخرجت من أركانه مُدية قديمة احتجب وميض لسانها وراء طبقة صدأ كئيب. غرست النصل في الثرى ليلة، ثم كشأتها بالمسد والحصباء والهيام. تألّق اللسان، وترأرأ في حدّه سنا الشمس، فخبأتها في الغمد القديم الموسوم بطلاسم الأسحار، ونمنمات الغيوب. دسستها تحت رُدن الجلباب في المرّة الأولى. ولكنّي قررت أن أحتال، فشددت الغمد، بسير جلد، إلى بطن الذراع، في الموقع الموازي لحفرة الإبط، وخرجت الى العراء. استللت المدية بعيد الضحى. تلألأت الأضواء في اللسان اللئيم. غنّى النصل في الشعاع البكر، وتمازج، مع الضياء، في الفضاء، بإغواء، فغنّيت أيضاً. راودت لحن الشجون القديم، حتى حلول القيلولة. نزلت الوادي لقضاء القيلولة، ولم أعد الى البيت إلاّ عندما ارتدت الصحراء أثواب الندأة، واحتفت بزوال الأوجاع في مأتم المغيب. دخلت الخباء متلفعًا بلحاف الغيهب، يسبقني لسان المدية، ويتردّد على لساني نداء الشجن. كان الأب في غيبته الأبديّة، والأَمَة تعاند الأنعام مع الرعاة في المراح المجاور، ولكن الجنيّة كانت تتفيّأ بشعرها في عمق الفسطاط. تتربّع في الحرم، في ركن الأب، في المخدع، عارية الرأس. تهمهم بلحن خفي، وتعاند جدائلها السخيّة بأناملها، فلم أتبيّن عما إذا كانت تكافح لتضفر الجدائل، أم تجاهد لتفكّ الجدائل. وقفت في المدخل، ولكن لساني لم يتوقّف. لساني ردّد أغنيتي المجهولة. لساني علا بندائي. لساني ارتفع بالنبأة. لساني بشر بنبوءتي، فابتلع نبوءة الجنيّة في الحال. اختنق لحنها في

صدرها، وفزّت إلى الوراء بذهول. تخلّت أناملها عن قبضة الشعر، فانهمرت الجدائل على صدرها المزموم. بعض الجدائل ما زال مغموماً في ضفائر رقيقة، محبوكة بدقّة مدهشة، فتبدو كخيوط نُسجت من شعور المعز. جدائل أخرى تحرّرت من الحبكة، فتناثرت، ونفثت في ثنيات والتواءات الإغراء. تقدمت خطوة. تقدمت خطوتين، ثلاثاً. وجدت نفسي أقف قبالتها. أشيّع في وجهها اللسان الشره، اللسان اللعوب، اللسان المميت، وأغنّي. أرفع صوتي لأعلي شأن نبأتي، لأبشّر بندائي، بنبوءتي. أنحني نحوها. أقترب من الحرم. اقترب من الفتنة. اقترب من الخطر. لسان المدية يتلوّى على بعد شبر من الصدر المزموم، من الصدر العامر، من الصدر الشهيّ. ولساني؟ لساني لا يبالي. لساني يكابر ويستعير أغنيته من مكانٍ آخر. لسان المدية يحمل نبوءته، ولساني يحمل نبوءة أخرى. لسان المدية يتوثّب لينتقم، ولساني يستنسئه ويستمهله استكشافاً للنبأة المجهولة، وانتظاراً لكلمة السرّ. قطعت المدية شوطاً أبعد. رقص اللسان المزدوج، اللسان المشقوق الى لسانين كلسان الحيّة، وتلوّى، بإغواء لسان الحيّة أيضاً، فوق الفوهة، فوق فتحة الحرم، فوق الشقّ الشهيّ، فوق خندق النهدين المزمومين، خندق النهدين الشهيين، خندق النهدين المسمومين، خندق النهدين المتوترين، الراجفين بحمّى الشهوة والرجاء والخوف. ها هما نافران، مزمومان، شهيّان، لئيمان، يرتفعان، يهويان، يلهثان في إيقاع حائر لا يثبت على حال. ها هي المدية تقتحم الحرم. ها هو اللسان اللعوب يلامس الثوب. ها هو يتمادى، يتجاسر، ينحر الناموس، قبل أن يتقدم شعرة ليلعق الدم، ليشرب من ماء القربان. يتسلل بحماس ممسوس ليدخل الفردوس، ليستلّ الغصن، ويسقط في جوفه الثمرة الحرام. ها هو يتوارى في

الفوهة، ويلجلج الخندق. في لساني يشتدّ النداء أيضاً. في لساني لا يسمو اللحن وحسب، ولكنه يدمدم بالطبول، وتزغرد فيه حناجر الصبايا، وتغنّي فيه الكاهنات تراتيلَ كالنواح، تراتيل الأجيالِ المستعارة من وصايا الأسلاف، تراتيل القران الذي لم يرَ الأوّلون فارقاً بينه وبين صلوات الممات. يشتط لسان اليد، لسان المقبض، لسان القربان، ينتفض، يجفل، كالحُوار، لأنه لم يعد يحتملِ الانتظار، لأنه يريد أن يرسم، بالدّمّ، سبيل القران، لأنه لم يخلق إلاّ ليرسم السبل للأقران، لأنه لا يعترف بقران لا يتغسّل بسلسبيل الدماء، لأن الدم قرين للقران، لأن العذراء لا بد أن تنزف الدم إذا دخلت مخدع القران، لأن القران لا يصير قراناً إذا لم يرتوِ من سيول الدم، إذا لم يتزوّد من سيول الدم، إذا لم يستنزفِ سيول الدم، ليذهب بالقرين الى المجهول الخالد الذي كان قَدَراً في رقبة كل قران. بتر اللسان طرف الثوب، ولحس، ببراعة المردة، الجلدة في فتحة الخندق، فتلجلج النداء في لساني، وندّت عن القرينة آهة مكتومة. فزّ خيط الدم. فزّ في اللحمة الشهيّة، المشدودة، اللميسة، في خيط كأنّه الإيماء. كأنّه شعْرة، ولكنه تنامى، وتبدّل، واستوى بعجلة البروق. تمادى كماء الحشرج، وسال، عبر الخندق، إلى الأسفل. اشتدّ لهاث الصدر، وترجرج النهدان بزلزال، ولكن قرينة الأبد لم تتحرّك. ظلّت تحدّق بعينيها الدعجاوين، الواسعتين، كعيون المها، وتستجديني باللغة الخرساء، كأنّها تريد أن تكلمني بأمرٍ، أن تسرّ لي بأمر، كأنّها تستعطفني أن أكبح جنون المدية التي تتلاعب بيننا، لتقول لي شيئاً يجب أن يُقال، لتبوح لي بنبأ جللٍ يستطيع أن يزعزع أركان الصحراء إذا لم تقله. ولكن.. ولكن كيف السبيل الى كبح جنون المدية؟ كيف السبيل لردع المارد بعد أن أفلت من القمقم؟ كيف

السبيل لردّ لسان المدية الى غمد المدية؟ ألا تدرك الشقيّة أن لسان المدية لا يخرج من المدية إلاّ إذا أزال البكارة، وسيّل سلسبيل الدم على عرش القران؟ ألا تدري قرينة الأبد أن لسان المدية إذا انطلق من العقال، فلا بدّ أن يزفّ القرينين الى مملكة الأبديّة؟ هل تعتقد البلهاء أنني أملك على لسان المدية سلطاناً أنا الذي لا يملك السلطان حتى على لساني؟

سرتُ وراء اللسان، يا مولاي، في ذلك المساء. سرت وراء اللسانين. سرِت وراء لساني إلى النبوءة، وسرت وراء لسان المدية إلى الحرم. وكان يمكن أن أمضي وراء اللسانين إلى الأبد، لو لم تقتحم الأمَة الخباء، وتعيدني، بالقوّة، الى الصحراء. فهل كانت تلك الحمّى هي ما يسميه أرباب العشق انتشاءً؟ هل كان ذلك الوجد هو ما يسمّيه أصحاب الأشعار حنيناً؟

١٧

عاد الأب من أسفاره فوشوشت في أذنه. وشوشت في أذنه ما أن حطّ عن مطيته الأحمال، واحتلّ عرشه المجاور للركيزة عند أرة النّار. وشوشت في أذنه في المخدع كلّ الليل. تجسستُ بأطرافي كلّها، ولكنّي، في القسم الأبعد من الخباء، لم أتبيّن الكَلِم، برغم أنّي رأيت الوشاية، في الصباح، إيماءً في عين الأب. كانت إيماءً في الصباح، ولكنها انتقلت الى العبارة مع سمو الشمس، وحلول الضحى:

ـ أنبأني الطير في السفر أنّ وليدي فاز بلقية!

حدجني بغموض قبل أن يضيف:

ـ ولكن الوليد لا يعلم أن اللقية ليست دائماً كنزاً، لأن الجنّ يتعمّدون أن يدسّوا لقية الخطر في أيدي البلهاء دسّاً، فاحترس!

رسم على التراب وسماً خفيّاً. شيّع رأسه ليحدجني بوعيد قبل أن يوضح:

ـ المدية لعبة الجنّ. الجنّ قوم أشدّ لؤماً من كلّ قوم، لأنهم يحرّمون على أنفسهم امتلاك هذا القضيب القبيح، ويذهبون ليضعوه في متناول أيدي الأقوام البلهاء كأقوامنا!

انحنى فوق الرقعة المنسوجة من ذرّات التراب. دخل حقول تمائمه. غاب في الحقل بعيداً. وسم بسبابته رموزاً جديدة. تكلّم من حقل المجهول بلسان المجهول:

ـ يُروى أن الجدّ في الزمان الأول عانى من العدوان ففتّش عن أداة يتّقي بها الخطر ويدافع بها عن النفس فلم يجد. ولكن «وانتهيط» اللئيم تنكّر في زيّ عابر السبيل، ونزل في ضيافته ليلةً. وعندما خرج الى سفره في الصباح وضع في يده المدية امتناناً على الإحسان. دفع بها الجدّ، في البداية، أخطاراً، ونحر بها وحوشاً، واتّقى بنصلها شروراً، ولكن ما لبثت المدية اللئيمة أن تحوّلت في يده شراً، لأن الجدّ لم يعرف أن السلاح الذي ندافع به عن أنفسنا هو نفسه السلاح الذي نرتكب به خطيئة العدوان، وجبلّة المدية أنها آلة شرهة لا وجود في ناموسها للحدود بين الدفاع عن النفس والعدوان. هنا بدأت مكيدة اللئيم تتحقّق، لأن الجدّ بمغالاته في الدفاع عن النفس نحر، بالمدية، أغياراً، وأنزل بالأبرياء قصاصاً، وتحوّل السلاح في يده مارداً عاث في أركان الصحراء فساداً، فأسمع الوصيّة، وأعلم أن كلّ لقية خطر. كلّ لقية دسيسة من دسائس «وانتهيط» اللئيم. كلّ لقية مكيدة حتى لو كانت حقولاً من ذهب!

مضى يدبّ في حقوله الأخرى. مضى يهيم في خلاء الرموز والأوسام والتمائم. ثم... ثم رفع إليّ نظرة غريبة. نظرة غائبة. نظرة اجتمع فيها الشقاء، بالرجاء، بالوعيد. قال بصوت مكتوم كالنّبأة:

ـ أنجُ بنفسك، وضع الدسيسة في يدي!

طرح كفّه اليمنى في وجهي، وأبقى كفّه الأخرى في حقل التمائم. طرحها في وجهي حتى ظننت أنه سيخالف ناموسه، لأول مرّة، ويلطمني. لأنني لم أتلقّ منه الصفع يوماً. لست الوحيد الذي لم يتلقّ من يد الأب صفعاً، ولكن القبيلة كلها تعلم أنه لم يصفع مخلوقاً في حياته كلّها، لأنه يرى أن كفّ الرجلِ لم تخلق لتصفع كأكفّ النساء، ولكنها خلقت لتتحسس مفاتن النساء. ولكنّه اليوم، عندما طرح راحته أمام وجهي بتلك الفجاءة، بذلك العنف، أيقنت، لوهلة، أنه سيدهمني بالكفّ. ولكن الكفّ توقفت على بعد شعرة من وجهي. توقفت مفتوحة، عارية، صارمة. تراجعت إلى الوراء لأجتنب الكفّ، لأتحاشى ملامسة الكفّ. وشددت ذراعي حول إبطي، حيث تندسّ المدية، دون أن أدري. تراجعت إلى الوراء، فلاحقني بصوت ألَين ويده ما زالت مبسوطة إلى الأمام:

- المدية إذا أعطت مقبضها لليد، فاعلم أنّ اليد لا بد أن تقترف الجرم. لا بد أن تنحر، لأن هذا هو سرّها. هذا هو السرّ الذي دسّه الدسّاس الأول في الدسيسة الأولى، فاحترس!

لم أحترس. لم أمدّ يدي الى الإبط لأحرّره من الكنز، من اللقية، من المدية. إذ كيف أتخلّى عن حصني طائعًا؟ كيف أقدّم بيدي سلاحي الذي آمنني شرّ الكيد؟ كيف أتنازل عن المارد الذي ردّ الكيد إلى نحر صاحبة الكيد؟ كيف أصدّق سيرة الخطر إذا كنت قد ذقت طعم لذّة امتلاك المقبض؟ كيف أتخلّص من مقبض أوقع الحسناء في يدي، ولفحتني بأنفاس النشوة في وجهي، ورمت عين الشهوة في عيني، وعرّت لي النهد المزموم لأستطعم النزيف في خندقه المجهول؟ كيف أفلّت، بعد اليوم، السرّ الذي شلّ الخصوم، وأفزع الأعداء، وجاء لي بالصحراء كلّها زاحفة على ركبتين؟ أليس هذا هو ما

يسّميه الأكابر سلطاناً؟ أليس هذا ما يسمّيه الدهاة ولايةً؟ أليس هذا ما يسّميه الكهنة ربوبية؟ فكيف يريدني الأب أن أستسلم وأسلم في يده سلاحاً صار لي سلطاناً وولاية وربوبية؟

تراجعت. بلغت في تراجعي المدخل. تحرّر بدني من حمى الفسطاط. بلغت شطآن العراء. وقعت في يد الفراغ. صار لي الفراغ ملجأً، فانتصبت واقفاً. عضضت طرف جلبابي بأسناني وانطلقت جرياً. ركضت حتى ابتلعني الخلاء.

١٨

رفضت التخلّي عنِ المدية، في ذلك اليومِ، فصارت لي المدية، يا مولاي، قدرًا. وبرغم أن الغلبة كُتبت للأب في تلك الجولة، إلاّ أنّي لم أهنأ، ولم أنم، حتى تمكّنت من استرداد الكنز. فهل يدري مولاي كيف احتال عليّ الأب ليغلبني في تلك الجولة؟ قيّد يديّ وراء ظهري، ورماني في العراء المجاور لمراح الأنعام يوماً وليلة. في الصباح وقف فوق رأسي، فرأيت في عينيه مخلوقاً آخر لم أره قبل ذلك اليوم أبداً. رأيت في عينيه همّاً، جنّاً، جنوناً، جنيّة... نعم. نعم. الجنّية هو ما رأيته في عينيه ذلك الصباح. الجنّية ركبته، الجنّية سكنته، الجنّية استبدلته، كما استبدلت سلالتها الخفيّة قريني عندما أسرته في التّيه. لأن النبأة أخبرتني أن المرأة لا تتسلل إلى حياة الرجلِ لتصير له قرينة في المخدع لتستولي على جسده، ولكنها تتسلّل لتستولي على كنز أنفس بما لا يُقاس. تتسلّل

لتستولي على قرينه الخفيّ، فتغدو إرادته إرادتها، ونواياه نواياها، وهواه هواها، وأنفاسه أنفاسها، وأحلامه أحلامها، وسرّه سرّها. تحقّقت من صواب الإلهام عندما رأيت صاحبة الكيد تطلّ عليّ من عينيّ المخلوق الذي لم يعرف قلبه الكيد يوماً، فقررت أن أستميت في الحال. قررت أن أتشبّث بسلاحي، بلقيتي، بتميمتي، دفاعاً عن نفسي. قررت أن أركب رأسي لا إنكاراً لسلطان الأب، ولكن استنكاراً للمخلوق الذي يسكن الأب. ولو كان الأب هو الذي سكن الأب في تلك الوقفة لما تهدّدني بالوعيد المكنون في العبارة:

ـ يحسن بك أن ترمي سلاحك في يدي!

الوعيد استفزّني. الوعيد استفزّ في جوفي مارداً لم أعرفه في نفسي، فتكلّمت كلّ عضلة في جسدي بالرفض، والعناد، والإصرار. كزّ على أسنانه كزّ الغوغاء، وهدّد بصريح العبارة:

ـ الويل لك إن لم ترمِ سلاحك! الويل لمن وقع في قبضة الخصوم وأبى أن يرمي في أيديهم سلاحه!

ها هي العضلة تخون ربّ العضلة فتتكلم بالبرهان. ها هو اللسان يغلب صاحب اللسان ويعلن للملأ الخبر اليقين. ها هو الأب يقدّم لنفسه الدليل على فراره من نفسه، وحلول اللئيمة في بدنه بديلاً. فكيف أسلّم سلاحي في كفّ العدوّ؟ كيف أقدّم عطيّة نلتها من يد الخفاء لقمة سهلة في فم التنّين؟ كيف أتخلّى عن المدية لأواجه مكائد الجنيّة أعزل اليدين؟ أطبقت على المدية في حفرة الإبط. شددتُ اللحمة على اللحمة، وضغطت العضو على الجلد، فالتأم البدن على الخُفية، وصارت الدسيسة جزءاً من البدن. رأى الخصم التصميم في مقلتي، فرأيتُ في مقلتيه اليأس. تلألأتْ حدقتاه بإيماء الانكسار، ورمى في وجهي سلاحه. وقعتُ في قبضة الخصم

أسيراً حقّاً، ولكنّي، بالتصميم، كسرت الخصم، وأجبرته أن يرمي سلاحه! انصرف فأقبلت الأمَة. قبعت فوق رأسِي زمناً، ثم حدّثتني بلغة الوجوم. توسّلتني بلغة الوجوم. ومض في عينيها بلل نبيل، وأسبلت جفنيها لتتستّر على الوجع المجهول، وتمايلت برأسها، بمنكبيها، بكل جرمها، الى الجانبين كما اعتدت أن أراها عندما تحتضن الشكوة، وتغيب في ممالك الحنين. توسّلت بالسكوت، والإيماء، والبصر المبلّل طويلاً، ولكني أجبتها بالرفض أيضاً. لم أتكلّم، لأنّها علّمتني أن اللسان يفسد الكلام. لم أتكلّم، لأنّي تعلّمت منها أن الصوت دنس يجرح براءة السكون. لم أتكلّم، لأنّها علمتني أن العين لم تخلق لترى، ولكنها خلقت لتتكلّم. قرأت في المقلة الرسالة، فانصرفت. انصرفت، ولكنها عادت في هتأة الليل خلسة. سقتني لبناً على عجل، ودسّت في فمي فطيرة مدهونة بالسمن، وفرّت. ظهرت كما يظهر الجنّ، وفرّت كما يفرّ الجن. ولو لم أشتم رائحتها، لأيقنت أن الرحمة نالتني بيد رسول من رسل الجنّ. ولكن الأمَة أيضاً لم تنتم يوماً الى سلالة الإنس. الأمة، أيضاً، رسول من رسل ملل الخفاء. ولم لم تنتمِ إلى السلالات الخفيّة لما استعارت من أوطانهم خلقهم، ومسلكهم، وعرفهم، ونبلهم.

ولم يكن من حقّي أن استبعد الرباط، لأن أهل الخفاء خدموا في بيوت أهل الخلاء كثيراً، كما خدم أهل الخلاء في بيوت أهل الخفاء مراراً. ولم يقتصر الاحتكاك على الإماء والأقنان والمماليك، ولكنه طال الحسان والجواري أيضاً، فاتخذ الصحراويون من بنات الجنّ قرينات وجوار، واختفت حسان القبائل الصحراوية، لتصبح في بلاد الخفاء قرينات سادة الجنّ وجواريهم أيضاً.

ولكن هل استسلم الخصم، ورمى سلاحه حقّاً؟

رمى الخصم سلاحاً، ورفع، في وجهي، سلاحاً جديداً. تخلّى عن لغة الاستعطاف والحجة والإقناع، واستعار لغة جديدة. شدّ رجليّ بوثاق أشرس الى وتد دقّه في الجاسياء بعيداً. تركني أحترق تحت شمس القيلولة، وحرّم على فمي شربة حيا، ونصّب جنيّته الكريهة عليّ رقيباً، وعاساً، وجلاّداً. نهشني الجوع، وضعضعني الظمأ. في النهارات أنكمش حول نفسي، كما تنكمش العساعس، اتّقاء لشرّ القيلولة. وفي الليل أستعيد الإحساس بالكائنات، وأسمع، في هدأة الليالي، زفير الإبل في المراح، واجترار الأغنام في المباءة. في ليلة أخرى أحسست بيد تتسلّل، خفية، لتسقيني الماء بملعقة الخشب، وتحشو فمي بقرص جبن طريّ، وتنسل في خفّة الأشباح، لتتوارى في ستور الظلمة. ويبدو أن حيّة المخدع اكتشفت السيرة، فنفثت في أذن الأب سموماً جديدة، لأنه جاءني في الصباح ليحملني على ظهر بعير الى وطأة الوادي. أحكم القيد في اليدين والقدمين، ثم تركني، وجرجر وراءه البعير، ومضى. سمت الشمس فوق قوس الأفق قامةً، فانحسرت ظلال المربأة التي تنتصب فوق رأسي، في حدّ الوادي شرقاً، وتستعلي في جلمودٍ صارمٍ، مكابر، أملس، مختوم بأحافير الأوّلين الذين لم يجدوا نصباً حسن في عيونهم إلاّ ووسموه بأشباحهم، وأنبائهم، ورسائلهم. في صلد هذا النصب، أيضاً، تراكضت الاشباح عارية، تطارد أبقار الوحش، وطرائد الودّان، مشيّعة أقواس النّشاب بأيدٍ، قابضة على أعواد النبال بأيدٍ أخرى. لم أجد، في كل الأشباح التي رأيتها مختومة على جدران الصخور الصحراوية، شبحاً واحداً تخلّى عن سهم، أو ألقى من يده قوساً. يتشبّث الصيّادون بأسلحتهم في كلّ غزو، ولا يتخلّون عن حصونهم أبداً. في جرم هذا النصب، أيضاً، يستميت الرجال ركضاً،

ولكنهم لا يفلّتون أعواد النشاب، ولا أقواس النبال.

لهوتُ بشبح مكابر، طويل، نضو البنية، عالي العنق، محفور في موقع يسبق أقرانه بمسافة طويلة، مشرّع الرجلين إيماءً لتفوّقه جرياً، يشيّع القوس بيسراه الى أعلى، ويشدّ عود السهم بيمينه الى صدره، رأسه ينتصب في استعلاء وتصميم، تتدلّى من ذقنه لحية هزيلة كلحية تيس المعز، ينطلق وراء قطيع منوّع الأجناس: أبقار، وودّان، وغزلان. من حشد القطيع تخلّفت شاةٌ ملآنة. القطيع ابتعد. القطيع ما زال في أمانٍ من الخطر. ولكن الجرم البدين تخلّف. الجسم الملآن ناء بلحمه فاقترب من كفئه الخطر. ولكن الخطر يلوّح بآلة الخطر ولا يجسر على التخلّي عن آلة الخطر. الخطر يفهم ناموس الخطر، ويؤثر أن يعرّض بطنه لخطر السغب، على أن يعرّض حياته للخطر، لأن الخطر يدرك أن التخلّي عن السهم الأخير، خطر أقبح من نيل الطريدة بالسهم الأخير. وها هو أمامي يجري، يرتفع عن الوطأة أشباراً، يعلو، يطير، ويكاد يدرك الطريدة عدواً؛ بل سيدرك الطريدة عدواً حتماً، ولكنه يضمّ الى قلبه العود الأخير كما تضم الأم الى صدرها وليدها الوحيد ساعة الخطر، ولا يفكّر أبداً في إطلاق سراح الرمية من المعقل.

هيأته تفضح نيّته. تصميمه يومئ الى حقيقته. جرمه المزموم يبرهن أنه قرّر أن يلفظ أنفاسه تعباً، ويقطّع جسده ركضاً، ولكنه لن يدع وحش الجوع يختلس من يده العود المضموم الى صدره.

١٩

شاء الخفاء أن تتزامن محنتي مع انقلاب مزاج الصحراء، وتململ المناخ الذي يبشر بالتبدل في مسلك الفصول، فيشتدّ القرّ، قبل أن يتخلّى لموقعه عن الحر مع نهاية الشتاء، ويتمادى حرّ الصيف، قبل أن ينهزم ويتنازل عن صولجانه ليد الخريف. اشتدّ القيظ يومها أيضاً، وسلّطت الشمس على رأسي خيوط النار، ولكنني، أعترف لمولاي، لم أكترث. لم تكن العلّة في استهانتي بسلطان الشموس، ولا استهتاراً بقصاص القيظ، ولا ادّعاء لصمود، ولا انتحالاً لبطولة، ولكن القرين كان، في ذلك اليوم، للامبالاتي سرّاً. لم يصبح سرّاً لأن الحنين في القلب استيقظ، ولكن لأن الحنين الذي لم ينم مرّة تأجّج فجاءةً. نسيت الأصفاد، وتجاهلت طغيان الشموس، ولم أكترثِ لجوع أو ظمأ أو وجع، واندهشت كيف احتملت فراق مَن لم أتخيّل له فراقاً طوال زمان التنكيل. والحقّ أنّي لم

أجرؤ على فراقه لمحة، ولكنه هو الذي فارقني. لم أجرؤ على فراقه، لأني لا أستطيع أن أتنصّل من رسمه دون أن أخون نفسي؛ لا أستطيع أن أتخلّص من جرمه دون أن أفقد جرمي؛ لا أستطيع أن أتحرّر من سلطانه دون أن أتحرّر من أنفاسي؛ لا أستطيع أن أتجاهل وجوده في قلبي دون أن أتجاهل وجود قلبي، لا استطيع أن أنسى له محيًا دون أن أخرج من نفسي، وأصير نسيانًا لنفسي. ولكنّه اختفى. اختفى منذ نشب العراك، فلم يقف فوق رأسي في منفى المراح، ولم يتسلّل ليسقيني جرعة ماء كما سقاني الشبح، ولم يطعمني جبناً ولا لبناً كما أطعمتني الأَمَة، ولم يقف فوق رأسي ليقيني بقامته من حرّ الشمس، ولم يخرج، ولا مرّة، ليقع لي على مرمى بصر، فهل حجبته السعلاة كضرب من ضروب الجزاء، أم قيّده الأب في ركن من أركان الخباء إمعاناً في الإساءة لي، وإيغالاً في ابتداع أجناس القصاص؟ أم أن الغرّ مضى يلهو بالأتربة، وغاب في أرباع المجهول التي لم يعد منها منذ عاد من رحلة التّيه، فلم يدرِ أنّي لا أخوض العراك المميت دفاعاً عن نفسي، ولكن للدفاع عنه هو؟ ألا يعلم أنّي لم ألوِ العصا في يد الأب، ولم أرفع المدية في وجه الحيّة إلاّ لأداري عنه كيد الأب المسكون بالجنيّة، وأمنع عنه سموم الحيّة؟ فكيف السبيل لجعله يعلم؟ كيف السبيل للوصول إليه؟ كيف السبيل لرؤيته ولو لمحًا؟ كيف السبيل لمخاطبته ولو وشوشةً أو همسًا؟ كيف السبيل لأن أوتى بمصيره علماً؟

بالنهار غزتني جيوش النمل، وأرتال الخنافس، وأسراب الذباب اللجوج، ولكني لم أنتبه. في الليل طافت حولي يرابيع الوديان، وأفاعي الأسافل التي تقتفي أثر اليرابيع، وعساعس الظلمات التي تطارد الأفاعي، ولكني لم أبالِ. ولامبالاتي تلك هي التي غدت لي حرزاً، لأن الجسم الذي لا يبالي، جسم

مشلول باللامبالاة، جسم مشدود إلى الأرض بخلوّ البال، فلا يتململ، ولا يصدم، ولا يفزّ، ولا يقاوم، ولا يبدي حراكاً، ولا يتطاول في عراك. والكائنات لا تؤذي كائناً لا يتململ، ولا يصدم، ولا يفزّ، ولا يقاوم، ولا يبدي حراكاً، ولا يتطاول في العراك. الكائنات تعبر الجرم الذي ركن الى التسليم، ولم يبدِ حراكاً، وقد تجتنبه، ولكنها لا تؤذيه أبداً، ليقينها بأنه جرم لا يؤذي، ولكن ليقينها بأنه جرم فقد القدرة على الإيذاء حتى لو كان في سجيّته الإيذاء، لأن ناموس كائنات الوديان الدفاع عن النفس، والجسم اللامبالي ليس خصماً ما لم يتململ للدفاع عن النفس؛ لأن الدفاع عن النفس، في ناموس الكائنات، دائماً عدوان. الدفاع عن النفس لا يقف عند حدود الدفاع عن النفس، لأن أوّل شروط الدفاع عن النفس الابتداء بالعدوان.

ذهبت بعيداً. جابهت غزوات الكائنات باللامبالاة، وذهبت بعيداً. فتّشت عن الشّق في كلّ ركن، في كل ربع، في كل خلوة، ولكني لم أقع عليه ببصر ولا ببصيرة. لم أحتمل الوجع. احتملت أوجاع التنكيل، ولكن وجع الحنين قهرني، غلبني، أطاح بي، ففزّت من مقلتي اليمنى دمعة في حرارة قطعة الجمر. حرقت خدي بالنار وهي تسيل، بمهل، وتحفر على الجلدة، في سيرها نحو الحضيض، سبيلاً عميقاً من حريق. أيقظني الحريق من غيبة دامت طويلاً. دامت، ربما، يوماً وليلة. دامت، ربما، أيّاماً وليالٍ. لأنني، عندما استيقظت، وجدت المساء قد تبدّل. ليس المساء وحده الذي تبدّل، ولكن الصحراء كلّها تبدّلت. اكتأب الفراغ، وتنفّس الخلاء بهبوب مبلّل بعطر الغيث، وتسكّعت في الآفاق الشمالية قزع سحاب طائش، فاستولى على الصحراء ذهول الانتظار. انتظار المخاض المباغت الذي لم يخطر على بال. خُيّل لي أنّي

سمعت دمدمة خفيّة، نبأةً، رِزًا تجعله المسافة وهماً. ولكن الأرض المحمومة بالشهوة، الأرض التي ألتحم بها، وأعطيها أذني اليمنى، تسمعني اللحن حقيقةً. الأرض الظمأى التي تتلهف لاحتضان المعشوق تنبئني، توشوش في أذني، في رأسي، في كل عضو في بدني، بالبشارة، وتدعوني لرفقتها لاستقبال المعشوق الخالد، الذي يأبى إلاّ أن يحصد القرابين عندما يغيب، ويأبى إلاّ أن يحصد القرابين عندما يُقبل. ها هي الأعالي تومئ تأكيداً لخبر القِران، ها هي السماوات الملفوفة بأحجبة العتمة الشفّافة تغمز، في البعد، ببروقها فوق شعاف الجبال الشمالية، لتزرع في الآفاق إشارة البدء.

ولكن الانتظار طال، والبدء لم يبدأ. شتات الغيم عبر إلى الجنوب، وابتلعت متاهات الفراغ في الصحاري السفليّة ما تبقّى من الأشلاء. تلألأت في السماء حشود الأنجم، وسكن في الهواء النَّفَس البليل، وانطلت على أهل الصحراء الحيلة. أنكروا الرسالة، كما أنكرت الرسالة، وكذّبوا الإشارة كما اعتادوا أن يكذّبوا كل أمرٍ لم تجرِ به الصحراء، فهجعوا في البيوت آمنين. هجعتُ أيضاً على الكنف الأيسر، ولكن الليل تنفّس قُرًا، فزعزعني برجفٍ، وطرد من عينيّ النعاس. انتظرتُ كائنات الليل لتلهيني، ولكن كائنات الليل لم تخرج، لأن الحِيل خُلقت لتنطلي على الإنسان، ولكنّها لم تخلق لتنطلي على هوام الصحراء. انقلبت على الجنب الأيمن مرّة أخرى، وأحسست أن القُرّ الليلي أنعشني وحررني قليلاً من ظمأ النهار، فاستيقظ في الجوف غول اسمه الجوع. اكتشفت أنّي نسيت آخر مرّة ألقمت الجوف طعاماً، لأني لم أستطع أن أسمّي قطعة الجبن (التي ألقاها الشبح في فمي على عجل) طعاماً، برغم أنّي لن أنسى طعم تلك اللقمة ما بقيت أدبّ فوق ظهر الصحراء؛ فأدركت أن الكبار لم يكذبوا عندما قالوا أننا لا نعرف سرّ الأشياء إلاّ عندما نفقد الأشياء.

أعرف أني تقلبت، وانتظرت زوّار الخلاء وضيفان الخفاء أمدًا طويلاً، ولكني لم أعرف متي ابتدأت الزلزلة، لأن النعاس، يقيناً، استغفلني، فغبت زمناً لم ينتزعني من دنياه إلاّ الهدير الرهيب. وقد أفاد العقلاء، في ما بعد، أن الرقدة في قاع الوادي أنقذتني، لأن الوديان تستغفل كل من استعلى بقامته عن حضيض الوديان، وتنذر كلّ من احتمى بالوديان من غدر الوديان، لأن القيعان هي الوريد الذي يجري فيه دم الأرض المسمّى في لسان القوم سيلاً، ويأبى السيل إلاّ أن يبعث بالضوضاء نداءً ينبئ الأوفياء بخطر لا يملك لدفعه عنهم سلطاناً، فينبههم منكراً على نفسه أن يأخذهم غيلةً.

الرسول النبيل أنبأني أيضاً. لم ينبئني وحسب، ولكنه أيقظني من سبات غادرٍ أطبق جفنيّ بعد سهر، فصرخت. صرخت ما أن تحرّرت من غيبوبة النعاس، وأدركت نزول البلوى الوحيدة التي يسفح الصحراويون دماء القرابين طلباً لها، فإن أقبلت، نحروا القرابين لتمضي، فأصابني الشلل، ولم أجد ما أستجد به غير النداء، فصرخت بأعلى صوت. ولكن الصوت غلبه صوت أقوى. صوتي ابتلعه صوت الزلزال، فراعني المصير، وأشفقت على نفسي. وجدت نفسي وحيداً، مهجوراً، مقيّد اليدين والرجلين، ملقى في قاع وادٍ سحيق، ينتظر، مشلولاً، مغلولاً، عاجزاً، ينتظر أن يدهمه مارد السيول ليأخذه في سبيله الى المجهول. لا أمّ لي، لا أب لي، والتوأم الذي كنت معه في بطن الأمّ كلاّ، واستقطعه مني الميلاد استقطاعاً، أنكرني، وهجرني، فأيّ أعجوبة تنقذ الإنسان من قَدَر الهاوية؟ أي أعجوبة تنقذ الإنسان من قدر الهاوية؟ أيّ أعجوبة. . تدخّل الإلهام، وأجاب على سؤال القدر نيابة عن القدر. سمعت الجواب بوضوح لم يبلبله الخطر: أعجوبة الإنسان هي الإنسان، ولا منقذ للإنسان غير الإنسان.

أجل. أجل. النبوءة على حقّ. النبوءة حقيقة، لأن الأم أنكرتني يوم سلّمت رقبتها لمدية الأب، والأب أنكرني يوم أدخل على مخدع الأم حسناء الشؤم، وقريني أنكرني يوم ذهب إلى التّيه، وآثر أن يعود لي متنكّراً بعد أن استبدل نفسه بِنفس مخلوق من سلالة الجنّ، فأين المفرّ إذا لم أفرّ إلى نفسي؟ من ينقذني مِن الأخطار، ومن الأهوال، إذا لم أنقذ نفسي بنفسي؟ بل من ينقذني من نفسي إذا شوّشتها الأهواء، إذا لم أنقذ نفسي من نفسي بنفسي؟

تلقفت الوصيّة وانطلقت. نزلت الوصيّة في بدني بلسماً، فزحفت. ابتلعت الوصيّة المجهولة الفزع، وغلبت الشلل، وأنزلت في الجوف قوّة، فصرت أتقلّب على الأجناب خارجاً من القاع. كان الزئير المهيب يعلو، ويقترب، ويتهدّدني بالمصير المجهول، فيستعر بدني، وتتوتّر عضلاتي، ويأكل المسد الشره، في الزحف، اليدين والرجلين، ولكن النزيف لم يرهبني، والوجع لم يوقفني، لأن الخوف من الوقوع لقمة في فم التنين كان أقوى من نهش الحجارة، أو عضّ المسد. سلخت لحمي حجارة لها أنياب الوحوش، ودست، ببدني، أشواكاً أشرس، ولكن جسدي تخشّب، وتصلّب وتحجّر. بلغتُ حاشية القاع، فاعترضتني أحراش قيصوم، ولفائف النبات الأسب. دهمتها. دهمتها بوحشيّة ساعة لطمتني قرّة الصقيع في لفحة هوجاء. لم أكد اعتلي الدغل الكثيف حتى زفر المارد في وجهي، وضربني بكتلة الجفاء. كان الجفاء، كان الغثاء، كانت البصقة الجنونيّة، خليطاً ثقيلاً، رجراجاً، من أوحال الأتربة، وأجناس الطين، وأكوام القشّ، وحفنات الروث، وأشلاء الجيف، وصيد سخيّ من هوام الأرض، وسكّان الجحور السفلى. غمرني الفيض عرضاً، صفعني المارد بطرف الجناح، لأني استطعت أن أخلي له السبيل، في القاع، بأعجوبة

حقيقية. ولكن النجاة كانت أمامي ما زالت بعيدة. هل قلت بعيدة؟ الحقّ أنها لم تكن بعيدة، ولكنها كانت مستحيلة. ولو رأيت ساعتها الفخّ، كما أراه الآن، لاستسلمت، ويئست، وتركت نفسي قرباناً في لسان المارد. ولكنّي لم أفكّر بعقلي، ولكني فكرت، ساعتها، بجسدي الذي يقتحم الحجارة، ويهشم الأشواك، ويطحن في طريقه الأحراش، ويستميت للإفلات من ساحة الخطر. ولكن الخطر يتضاعف، والقاع يضيق في الهوّة، والمارد يتمادى، لأنه لم يدرك الهاوية، حتى ذلك الوقت، إلاّ باللسان، فكيف المصير إذا استبدّ المارد، وأدرك الوادي بالعنفوان؟

بلغت حاشية الهاوية، ولكني لم أبلغ ضفّة الوادي. بين الضفّة والضفّة تستلقي الهاوية، وبين الضفّة وشطّ الوادي تستلقي هاوية أعلى مستوى من هاوية القاع، مفروشة بالحجارة، والحصباء، والنتوءات، وحشائش القيصوم، وأشجار الرتم، وبعض النبات اللاطئ الذي يتلبّس وجه الأرض. في نهاية الشوط يتمرّد الحدّ، وتنتصب الصخور الى السماء في استعلاء الجبال، فيصير الخروج من بطن الوادي مستحيلاً حتى للراجل الذي يسعى على قدمين طليق اليدين، فكيف بأسير مغلول اليدين والرجلين؟ ولكنّي لم أفكّر كثيراً في أنصاب الردع. لم أتخيّل استكبار الشطآن، ووعيد الشعاف، لأن الفجاءة لم تترك فرصة التخييل. ولو فكّرت لأيّست في الحال، ولسلّمت الأمر بيد تيّار الجنون.

في سفح الظُّهير المفروش بالكلس وأكداس حجارةٍ صقلتها سيول الزمان، هوت الأرض إلى الأسفل، فثبّتُ مرفقيّ المشدودين إلى الوراء، واستعنت بالعقبين أيضاً، واستمت لأنقلب على الكنف الأيسر صعوداً، على شعفة الظهير. ولكن الغمر لم يمهلني. الغمر فاض في الأخدود الأسفل، وعربد في

الضاحيتين. الغمر لاحقني، وكسا جلبابي ووجهي وصدري بأخلاط الجُفاء، وشرع يحتال للاستيلاء على جسدي. شرع يحتال على جسدي كما اعتاد أن يحتال لاستخراج الحيّات والفئران والضّباب من الجحور والحفر، ليجرفها في لسانه الوحشيّ. حفر اللئيم تحت المرفقين بهمّة الممسوس، حفر تحت الكعبين المغروسين في الحصباء. حفر تحت العجيزة، تحت الجسد كله. حفر بلمح البصر، فاستجابت له التّربان بلمح البصر أيضاً. حفر بخبث الدهاة، فانطلت حيلته علي التّربان. تراخت الأتربة، وتخلخلت المفارش المحبوكة من حبيبات الحصباء، وبدأ البساط ينسحب، ويتنحّى، ويخون. بدأ البساط يتزحزح ليتخلّى عنّي لصاحب الهجمة. تسلّل ربّ الغزوة ليدخل بيني وبين التراب. تدخّل اللئيم بلسانه ليفتن بيني وبين الأرض، لتتخلّى عنّي الأرض. لم أعرف إلى أين نفى المارد الأرض، ففرّت الأرض من لحمة الأرض. انقشعت الأرض فافترشت غمراً، افترشت ثعلباناً، افترشت داهية، فهدهدني اللئيم بين يديه احتيالاً، ورجّني إلى الجانبين مداورةً واستغفالاً، وهمّ بأن يشكف عن سره، عن نواياه، عن أنيابه، ويرمي بي إلى المجهول، لو لم استحضر المسّ في صدري، وأثب، وثب أهل اليأس، جانباً. لم أفقد الصواب، في الوثبة، فيرمي بجسمي إلى الجهة اليمنى. عطّل الغزو في نفسي العقل، ولكنه لم يخطف من بدني الغريزة، فقفزت، بالغريزة، إلى الجانب الأيسر، إلى الجانب الأوعر، إلي الجانب الذي يرصّع شعفته تاج الظُهير المكابر، ويَعِد بأمل خفيّ. أمل النجاة من الخطر. أمل النجاة من القبضة الجنونيّة. أمل الوصول إلى برّ معصوم من القصاص، من الطوفان، من المارد المفتول بجرم الغمر. لاحقني اللسان. لاحقني المارد بلسان الطغيان، وأدركني. تنفّس في وجهي أوحالاً باردة،

مخلوطة بغثاء القشّ، والبعر، والعيدان، وأجسام الهوام، وأجناس الحصباء والتربان. غمرني بالفيض في هجمة انتقاميّة، وسحب من تحتي بساط التراب، ودفعني، بغلّ جنوني، ليرمي بي بعيداً. أطلقت صيحة استغاثة. استغاثة يائسة لأنها بلا إرادة، وغشتني غيبوبة لم تدم أكثر من غمضة، لأنني استبسلت، واستوفزت كل عضلة في جسدي، لأعاند العدوان. ولكنه غلبني. غلبني وجرجرني مسافة تخيّلتها الأبديّة. ولكني وجدت نفسي مشدوداً إلى وتد. وتد؟ لم يكن ذلك وتداً بالطبع، ولكنه حرجة من حرجات الوادي. كوم أشواك يتشبّث بالأرض. نبتة شرسة تستجير من الغزوة بجذورها المدسوسة في أعماق الأرض. نبتة الشوك هي التي تلقفتني من المصير المجهول، وأعادتني إلى الأرض. ولكن الكائن المعادي لم يمهلني. الكائن المعادي صفعني بوحشيّة، وانتزعني من كفّ النبتة الشوكية ليطويني في لسانه مع بقية الضحايا التي أتى بها من أعالي الوديان. جرجرني مسافة أخرى. طار بي مسافة أخرى. غبت في اليمّ البارد كمياه الشتاء التي تتجمد في أجواف القِرب، وتستحيل قطعة من صلد، ولا تعود ماءً إلاّ قبيل منتصف النهار. غيّبني الصقيع ففقدت الإحساس بأطرافي، بجسدي، بنفسي، ولكني خشيت أن يجرّني المارد إلى الأخدود، إلى الهاوية، إلى الشق المهول في الجهة اليمنى، أكثر مما خشيت الهلاك بسبب الصقيع. ربما لأني تعلّمت في تلك الليلة أن الإنسان لا يفكّر في الهلاك عندما يعارك، الإنسان لا يعنيه الهلاك عندما يعارك، ولكن ما يعنيه هو العراك، لا الهلاك. قدره، ساعتها، أن يعارك، ويخلص في عراكه، بكل ما أوتي من قوّة، ولكن الهلاك الذي ينشب أنيابه في خناقه، ويتوثّب ليختطف حياته من بين يديه، لا يخطر له على بال. نسيت

الهلاك، ساعتها، وجاهدت للإفلات من الشَّرَك الواقع على جانب يدي اليمنى. قبضت بيدي المشدودتين ورائي على الأتربة. نشبت أظافري في التربان، واستنجدت بأكوام الحصى كما يستنجد الغرقى بأكوام القشّ. خطف اللئيم الحبيبات من بين يدي في كلّ مرّة أحاول فيها أخذ الحصباء في قبضة اليد. بدّد الحصى، كما بدّد الأتربة، والأوحال، وألواح الطين التي كانت تفرش الوادي قبل هجومه. غمرني تماماً، اعتلى بدني، طفح فوق رأسي، وخنقني. اختنقت. شربت كدراً، وطيناً، وروثاً، وأشلاء الحشرات والهوام. غصصت بالأوحال والأخلاط، وشرقت بالأكدار والأجرام. لا أعلم كم استمرّت الجرجرة قبل أن تحدث الأعجوبة، ويحدث الخلل. توقّف السحل، وتعطّل البدن في السباق الجنوني. لم أدرك السرّ في الحال، لأني كنت ألفظ الكدر وأتقيّأ الأخلاط. تقيّأت، ولكن جرماً مقوّراً، خشناً في الأطراف، في حجم قطعة البعر، توقّف في الحلق، وأبى أن يتزحزح. ظللت أعوي كالجرو، وأجاهد لأطرد من جسمي الجسم الغريب. اختنقت، وكادت عيناي أن تقفزا من محجريهما، وأنا أحاول أن أتحرّر من اللقمة المشئومة. ظننت أن الهلاك الذي لم يجئني على يد رسول الصحراء، سيجيئني على يد الجرم الغريب. فكّرت في الهلاك لأن الإنسان لا يتفكّر الهلاك إلاّ ساعة يتوقف العراك. ولكن الغمر هبّ لنجدتي. الجلاّد هو الذي أنجدني عندما رمى في وجهي ببصقة جديدة من بصقاته الهائلة. ابتلعت الغمر، غمر الغمر حلقي، فتخلخل الجرم اللئيم، وقذفته إلى الفم. أطبقت عليه بأسناني انتقاماً فانبعج كما تنبعج الخنفساء. الخنفساء؟ بلى. بلى. الجرم كان خنفساء. خنفساء حقيقية. بصقت الحشرة، وتقيّأت طويلاً، ولم أكتشف سرّ توقّف المارد على سحلي إلاّ بعد أن

استرددت قواي العقلية. كانت الحطبة اليابسة هي التي استوقفتني. الحطبة بأضلاعها المثلثة هي التي اعترضتني، لأن أحد الرؤوس نشب رأسه في حبل اليدين. وشدّني إلى الأرض شداً. شدّني برغم جنون الطاغية. انتزعني من يد الطاغية. اعترضني بأسنانه البائسة، الهشّة، المنتصبة إلى أعلى، ليردّني إلى الأرض، إلى الصحراء، إلى الحياة. استردّتني الأسنان التي أطاح جدب السنين بفروتها، وامتصّت شموس الزمان النداوة من أعوارها، وهرأتها الريح المحمّلة بالأتربة، لتحيلها يباباً ميّتاً ينتصب فوق قمّة الطين، منتظراً أن يقبل السابلة ليجتثّوه ويلعموا به النار ليتدفّأوا. لم تنقذني العيدان وحسب، ولكنها علّمتني أن الأشياء الصغيرة، التي اعتدنا أن نستهين بها، تحمل، دائماً، رسالة خفيّة تصير لنا سرّ هلاك، أو تغدو لنا سرّ خلاص. فهل تعتقد، يا مولاي، أن الطاغية استسلم؟ كلاّ. كلاّ. الطاغية لم يستسلم. الطاغية حمل رسالة أخرى، مضادّة، معادية، خفيّة أيضاً. الطاغية أقسم أن يستردّني فهاج، وفاض على الجانبين بسخاء حتى كاد يبلغ الشطوط المسلّحة بأنصاب الصلد. لم يلتجئ، هذه المرّة، للعنف كي ينتزعني من يد المنقذ، ولكنّه احتكم إلى المكيدة، لأنه أدرك أن ما لا يؤخذ بالقوّة، يمكن أن يؤخذ بالحيلة. مدّ ألسنة الخبث إلي الأسفل، وابتدأ الحفر. لم يحفر تحت جرمي، ولكنه، ككلّ داهية، حفر تحت جرم المنقذ. قرّر الاستيلاء على المنقذ. قرّر أن ينتزع المنقذ من جذوره ليسهل الاستيلاء عليّ، عليّ الضحيّة، على القربان. قرّر أن يقتصّ من المنجد لينال البغية. غرستُ يديّ في التراب لأحمي الجذور من مكيدة الداهية، ولكن هيهات! تعرّت الأصول من الأتربة، وذاب الطين في لمح الأبصار، فتخلخلت الجذور، وانسلّت، بيسر، لتستسلم لسلطان التيّار. استسلمت أيضاً، فتلقفني اللسان

ودحرجني. دحرجني فارتطمت بأعشاب أخرى. حاولت الإمساك بالأحراش، ولكنّ الطاغية لم يمهلني. استطعت أن أقبض على أغصان الرتم، وأعراف الدغيلات الشوكية مراراً، ولكنه يدهمني بخشونة الجلاّد، ويرميني بعيداً، فتفلت من يدي أغصان النجاة. غمّني مرّة أخرى. ألقى في وجهي بأوحال الجُفاء، فاختنقت بالكدر، وابتلعت الأخلاط، وبدأت أعاند الغيبوبة. لا أدري كم استغرقت الدحرجة، ولكني، عندما استعدت العقل، وجدت نفسي مشدوداً إلى الصلد، إلى سدّ من صلد؛ يعترض بدني كلّه، ويحشرني في غور المغارة. بصقت، وتقيأت، والتقطت أنفاساً قبل أن ألتفت لأعرف سرّ اليد التي انتشلتني من لؤم اللئيم. وجدت أن الوادي أنحرف، بحدّة، غرباً، فاعترضني النتوء الصخري الذي يعترض المجرى، وينتصب عند الجزع في استكبار نبيل. اندسست في الركن، في الخواء الذي أخلته سيول الأجيال، وحفرته كوة في صلد السدّ. مياه الغمر تصفع الجدار، في اندفاعها المجنون، بوحشيّة، فتعلو المياه إلى السماء، فأنغمر، وأتزحزح، وأشرق. ولكن الماء ينحسر، تارات أخرى، ويتراجع الهجوم إلى حين، فاختطف الهواء بنهم الظمآن المهدّد بفقدان الهواء. قد يستغرق انتظاري للهجمة التالية أمداً أطول، وقد تستغفلني فتدهمني، بالفجاءة، في أمد أقصر. استمهلني مرّة، فاكتشفت غزوة الضياء. لم يكن قبساً شحيحاً في ميلاده البتول، ولكني تبيّنت عراء الشاطئ المواجه بوضوح. ساعتها لامست الجسم اللميس. ساعتها، بالتحديد، أحسست بجرم سلس، لزج يتوارى تحت جلباني المنفوش، تزحزحه أمواج الماء، فيلامس ساقي اليمنى، تتراجع المياه، في الحفرة، فيلاصق ساقي اليسرى. ينخفض مستوى الغمر، في الجزر، فينزلق إلى أسفل حتى يعترضه الوثاق الذي

يشدّ العقب إلى العقب. يرتفع مستوى الغمر، في المدّ، فينساب، مع الماء، ملاصقاً للساق اليمنى تارة، ومحادياً للساق اليسرى تارة أخرى، حتى يبلغ الفخذين، يجتاز الفخذين، يمضي بانسيابه اللئيم، إلى الأمام، ولا يرتدع إلاّ عندما يصدّه امتداد جسمي الواقع أسفل السرّة. حاولت أن أتحرّك، أن أنهض لأتحرر، ولكن سقف النتوء صدّني، وخشيت أن أغالي في طلب الخلاص، فتتخلّى عنّي الفجوة، فركنت إلى الجُحر مرة أخرى. ركنت لوهلة لم تدم طويلاً، لأن الجسم الغريب التفّ حول فخذي الأيسر. التفّ التفافاً بطيئاً، التفّ في ثنية كسولة ما أن تراجع الماء في حركة الجزر، واسترخى في هجمة المدّ. ولكنه عاد فالتوى في وهلة الجزر. كان لئيماً، لميساً، لزجاً، مقزّزاً، اقشعرّ له بدني، أكثر مما اقشعرّ لصقيع الماء، أو لأخلاط الأوحال، أو حتى للقمة الخنفساء. فأي سرّ في هذه اللفافة؟ حاولت أن أحرر فخذتي من الطوق الكريه بمساعدة الفخذة الأخرى. تراخى الطوق وتضعضع قليلاً، ولكنه ظلّ عالقاً بالفخذة... فهل هو حبل صوف، أم ضفيرة من سيور الجلد، أم خرقة من خرق الكتّان؟ حاولت الفكاك من أسره طويلاً عندما تحسست، بفخذتي اليمنى، بدنه المتوّج برأس لا يمكن أن يكون غير رأس الحيّة. فكيف لم أُلدغ؟ كيف أمهلتني الداهية كل هذا الوقت؟ كيف نجوت من نابها المميت وهي التي تلدغ ضحاياها بضرب أسرع من لمع البرق كما يؤكد العقلاء؟ كيف أصدّق أني نجوت من ناب الحيّة أنا الذي لم يصدّق أنه نجا من بطش السيل؟

قررت أن أحتال أيضاً، فهادنت. أبعدتُ فخذتي اليمنى كي أتجنّب استفزازها. ابتعدت بالفخذة الأخرى نحو غمر الوادي علّ المارد يتولّى عني الأمر. في هبّة جديدة، عاتية، طار فيها رذاذ الماء في الهواء، تراخت. تراخت وتخلخلت

حتى كدت أتيقّن من الخلاص. ولكني اكتشفت أن رأسها يسبح في وجهي، ويكاد يلامس أنفي، برغم أن ذيلها ما زال عالقاً بفخذتي. فهل الحيّة طويلة إلى هذا الحدّ؟ ألا يقول العقلاء أن الحيّات التي يزيد طولها عن الذراع لا وجود لها إلاّ في بلاد الأدغال؟ فمن أيّ جحر استخرج الداهية هذه الداهية، أم أن الداهية استصحبت الداهية، لأن الداهية لا تستصحب إلاّ داهية؟

في غزوة أخرى لطمت الداهية وجهي. دفعها الفيض في نزوته الجديدة، فارتطم رأسها القبيح بأنفي، بشفتي، بفمي، بأسناني. فتحت فمي لأنهش رأسها الكريه بأسناني، لأن الأسير المكتوف اليدين، المشدود بأسرس وثاق من الرجلين، المحاصر بغول السيل، لا يجد ما يدافع به عن نفسه إلاّ أسنانه، إلاّ فكّيه. أسير كهذا لا فرق بينه وبين جلاّده الجديد. لا فرق بينه وبين الحيّة. الحيّة تدافع عن نفسها بفكّيها، والأسير المكتوف اليدين والرجلين يدافع بفكّيه. الحيّة تميت بالنّاب، والإنسان الأسير يميت بالنّاب. تبيّنتها في الضياء بوضوح. تبيّنت رأسها الشره، المتوّج بقرنين شرسين. تبيّنت الغضون التي تخفي السموم حول فكّيها. انتظرت وثبة الماء التالية. لم يطل بي الانتظار. اجتاحني الماء في صفعة جديدة، فارتطمت الحيّة بوجهي. ساقها السيل إلى فمي. فتحت فمي. هيّأت أسناني. استنفرت بدني. شددت كل عضلة في جسمي. اندفعت برقبتي إلى الأمام. أدركت البدن الكريه، العائم، الذي تتلاعب به المياه حول صدري. أغمضت عيني. أغمضت عينيّ لألتقم الرأس. لأنهش الرأس الذي علم الإنسان النهش. لأطبق فكّيّ حول الرأس المسموم. لأنزل الناب على الوعاء الذي يدسّ صفوف الأنياب. لأستأصل أنياب السموم بناب الدفاع عن النفس. أطبقت الفكين. أنزلت

الأسنان لأطحن الأسنان. لأجتثّ الأنياب المشحونة بالسمّ، فتنزّلت الأسنان لترتطم بالأسنان. أفلت الرأس في هجمة المياه، وساق الرأس جانباً. نحّى الجرم شبراً، إلى الناحية اليمنى. بجوار المنكب الأيمن، برغم أن التواءات الجرم ما زالت تلامس صدري. ساعتها أدركت السرّ. أدركت سرّ الهامّة التي حوّلها صقيع الماء إلي حبل لا حول له ولا قوّة. أدركت أن الحيّة لم تعد حيّة، لأن سلطان البرد أعجزها وأفقدها القدرة على أن تفتح فكّيها. تذكرت أن الحيّة تتحوّل حبلاً إذا فقدت، لسرّ ما، القدرة على فتح فكّيها. أطبقت فمي. أخفيت أنيابي في فمي، بين فكّيّ، ولامست الثنايا بشفتيّ. تحسّست اللفافة اللميسة، اللزجة، بشفتيّ، وتبيّنت العجز في مقلة العدوّ المطفأة. تبيّنتها، في ضوء الصبح، بوضوح.

٣٠

تحرّرت.

تحرّرت من اللفافة الرقطاء بالفجاءة التي أوقعتني في أسرها. تحرّرت دون أن أدرك كيف تحرّرت، ولا متى تحرّرت. أغمضت عينيّ عجزاً، وعاركت الغثيان اشمئزازاً، ولاحقت سنا الصبح على شعفة الشطّ المقابل فراراً، ثم التفتّ فاكتشفت أن الحبل اللئيم قد اختفى. بحثت حولي، فتشت أركان المخبأ ببصري، حرّكت ساقيّ في الغمر استكشافاً، وخضت، باليدين، في الغمر، وراء ظهري، ولكن الأطراف لم تهتدِ إلى الجرم، فعرفت أن الطاغية استغفلها واستولى عليها، في هجمة ماكِرة، ليجرّها إلى المجهول. استبدّ ببدني استرخاء يعرفه كلّ من شاءت له الأقدار أن يعارك طويلاً، ويخرج من العراك المميت حيّاً. استرخاء صاحب اليأس، استرخاء من نالته

التهلكة، ووجد نفسه قائماً في برّ الخلاص. في برّ النجاة. نسيت أنّي لم أنجُ إلاّ من ركن واحد من أركان الأسر الثلاثة. نسيت أن الحيّة كانت قيداً من أغلال ثلاثة. نسيت أن عليّ أن أتحرّر من أسر حبل المسد كي أتحرّر من خطر السيل، وعليّ أن أتحرّر من أسر السيل إذا كنت أطمع في التحرّر، في الخلاص، في النجاة. نسيت أنّي لم أتحرّر إلاّ من القيد الأكثر يُسراً، في حين يلتفّ الغمر حول عنقي كأفظع ثعابين الأدغال، وتطوّق حبال المسد يديّ ورجليّ بوثاق أشرس من سلاسل الحديد. نسيت، لأنّي لو لم أنس ليلتها لما كتب لي القدر النجاة من تلك الأشراك، ولما وجدت نفسي قادراً على الجلوس الليلة بين يديّ مولاي لأسرّ له بأمري. استرخاء النجاة من سمّ الحيّة كاد يهلكني، لأن الاسترخاء، دائماً، خطر. لأن الاسترخاء خطر حتى لو كان ابتهاجاً بالنجاة من الخطر. تراخت الأعضاء، وتمكْسَل البدن المزموم، فتداعت القبضة المتشبثة بنتوء الصلد، فباغتني المارد كما باغت الحيّة قبلي. انتهبني في غزوة جنونية جديدة، ورماني خارج الفجّ، فاستغاث صدري بصيحة أنكرتها أذني. لم تكن صيحة استغاثة، لأني أدركت منذ البداية عدم جدوى الاستنجاد بأغيار لا وجود لهم. لأني أدركت أنّي مخلوق وحيد، والمخلوق الوحيد لا يملك الحقّ في أن يستغيث، لأن الأغيار (حتى إنْ وُجدوا يوماً) فإنهم لا يملكون الحقّ في أن يهبّوا لنجدة المخلوق الوحيد أبداً. لأني أدركت، بوصيّة الرسول الذي انتهبني، أني لم أَصِرْ مخلوقاً وحيداً ساعة غدوت غنيمة في لسان الغمر، ولكني كنت مخلوقاً وحيداً قبل أن يتخلّى عني الأب بتحريض من حسناء المخدع، وقبل أن يتخلّى عنّي القرين ويفرّ إلى بلاد الجنّ والتّيه، وقبل أن تتخلّى عني الأم لتقدّم نحرها لنصل القربان، وقبل أن يتخلّى عنّي الخفاء

ويخرجني من بطن المجهول ليدخل بي دنيا الخلاء. ظننت، أول الأمر، أني لم أكن وحيداً في يوم من الأيام. ظننت أنّي جزء من الأم، ولكنها تخلّت عنّي؛ وظننت أني جزء من القرين، ولكنه تخلّى عنّي؛ وظننت أنّي جزء من الأب، ولكنه تخلّى عنّي؛ وظننت أني جزء من الصحراء، ولكنها ها هي تتخلّى عنّي أيضاً، فكيف لم أكن وحيداً منذ البدء؟ وكيف لا أكون وحيداً إلى الأبد؟ لهذا السبب استنكرت، بأذني، استغاثة صدري. لأننا ملّة تعلّمت ألاّ تطلق نداء الاستغاثة إلاّ انتظاراً للغوث من جانب الأغيار. أمّا من ابتلى بالعزلة، أمّا من وُلد وحيداً، ووجد نفسه بين الأنام وحيداً، وعارك السيل وحيداً، فلا حقّ له في أن يستغيث أبداً. من حقّه أن يخنق النداء في صدره، ويحشرج بالصوت مكتوماً في الحلقوم، كما يحشرج الحلقوم بالمياه المخلوطة بالأكدار، ولكن لا يملك الحقّ في إسماع صوته للملأ أبداً. ابتلعت ندائي، كما ابتلعت جرعات الماء الرجراجة بالغثاء كوجبة الحساء، وتصلّب البدن باستفزاز الخطر. انتشلتني الهجمة من الوجار، ولكنّي تشبّثتُ بنتوء في رأس الكُنّ في آخر ومضة. جرّني من المعقل بعنف، فانغرست أظافري في جرم الصلد ما أن ارتفع بدني وتزحزح إلى أعلى. انغرست الأظافر بلا إرادة منّي، وحرثت الصلد الصارم، الذي صقلته سيول الأزمان، وشذّبته رياح الأبديّة، بحثاً عن نتوء، أو حفر، أو غور، أو خدش تتشبّث به، ولكن هيهات! السيول مسحت النتوءات والأحافير، والرياح سوّت الخدوش، ولمست فيه كلّ فجوة أو غور، فتخلخلت الأظافر في بغيتها المستحيلة، واجتثّها الصلد بوحشيّة، فأحسست بالوجع لأوّل مرّة. ولكن الإحساس بالخطر جبّ الوجع في لمحة، ووجدت نفسي أطفو فوق سطوح دهليزي الوضيع، لأواجه مصيراً جديداً في المسيرة الجديدة. أيست

مرّة أخرى. أيست فوضع اليأس في يدي نتوءاً لم أطلبه، ولم أنزع في سبيله أظافر اليدين. أيست فطرح اليأس في يدي وتد النجاة لأن الأيدي لا تهتدي إلى أوتاد النجاة إلاّ عندما تستسلم لسيول اليأس. بلى. العناد يقودنا إلى الهلاك، واليأس يسوقنا إلى النجاة.

فوق ظهر اللسان الصخري الممدود في حضيض الضفّة الشرقية استنشقت الهواء بحريّة، لأن الرمية التي أرادت بي الهلاك، انتزعتني من حضني، ولكنها ألقت بي في عنق السفح الحجري، المرفوع فوق قاع الهوّة، فتنفست هواء حقيقياً لأوّل مرّة؛ هواء مجرّداً من فيوضات الغمر، ومن أوحال الجفاء، ومن دواب الحُفَر، ومن القش العائم على سطح المياه. ظلّ نصفي الأسفل مغموراً، ولكن صدري تعرّى كله، فالتقمت الهواء بفتحتي أنفي، بفمي، بيلعومي، بصدري، برئتيّ، بأذنيّ، بحدقتي العينين، بوجهي، بكلّ ذرّة في بدني، بكلّ ذرّة في النصف العاري، الذي تحرّر من غمر الماء، ليتحمم في غمر الهواء. ساعتها، فقط، استيقظت. ساعتها رأيت السماء العارية من الغيم، ورأيت الصحراء المغمورة بالضياء، ورأيت في جسد الصحراء الأخدود المغمور بالمياه، ورأيت في شعاف الشاطئ الآخر خلقاً، فلم أعرف عما إذا كنت قد عشت كابوساً في الأحلام، أم أن الحلم ما زال مستمرّاً، لأني لم أستيقظ حتى الآن. كانت المخلوقات التي تدبّ فوق ظهر الضفة الأخرى مضحكة، لأنها ذكرتني بتلك الدُّمَى التي صنعتها لنا العجائز، وكنّا نشدّها بخيوط الكتّان فتتمرّد على قدر الدمية، وتسعى، وتعاند، وتحيا، كأنّها تخبرنا بأن الجرم، أيضاً مخلوق، إذا استوى في جرم؛ والمخلوق لا بدّ أن يدبّ، ويعاند، ويحيا، حتى لو كان دمية. كانوا يمشون فوق الأخدود جنوباً، ثم

يدبرون ليسيروا عبر الشطّ شمالاً، يتوقّفون، يتجادلون، يومئون بأيديهم، ينحنون فوق ساحة الغمر، ثم يدبرون إلى إحدى الجهتين من جديد. فمن أين جاءوا؟ ومتى جاءوا؟ وماذا يريدون؟ وهل هم حقيقيون؟ استبدّ بي إغواء الاستنجاد بهم، نسيت قدري، وتأهّبت لطلب النجدة مرّة أخرى. غلبتني الشهوة إلى النجاة، فتهيّأت للصراخ بالنداء. ولكني أحجمت في آخر غمضة. أحجمت لا شكّاً في هويّتهم، ولكن يأساً من نفعهم. أحجمت لا يقيناً بانتمائهم إلى عشائر الجنّ أو سلالات الأحلام، ولكن اعترافاً بعُرف الإنسان الذي لا تستغفله التهلكة إلاّ في اليوم الذي يُخدع فيه، بسلطان النسيان، فينتظر العون من جانب الأغيار.

بعد وقت سمعتُ صياحاً. سمعتُ صياحاً حقيقيّاً. تنادوا بأصوات عالية، فسمعت أصواتاً خيّل لي أنّي لم أسمعها منذ وُلدت. تنادوا بالأصوات فطغت أصواتهم على بلبلة السيل في القاع، فسقط نداء الإنسان في سمع الإنسان. سقط نداء إنسان مجبول بالعزلة، في سمع إنسان مغلول بالعزلة. سقط نداء إنسان لا يصدّق عزلته، ولا يريد أن يعترف بعزلته، في سمع إنسان صدّق النبوءة، وآمن بعزلته قدراً. استفزّني النداء، وحرك في دمي حنين التلاقي، فاحترقت مقلتي بدمع إنسان أدرك أن اللقاء، إذا تمّ، فلن يكون إلا خطوة في سبيل الوداع الأخير. هبّت موجة جنونية جديدة شغلتني عن القوم، عن الأشباح، عن الدمى التي تتسكّع فوق المرتفع. ألهتني الغزوة لأنها كادت تقتلعني من السفح الصخري. غمرت وجهي بهجمة انتقامية فأعمتني بالأوحال، وأغرقتني بالأخلاط، ونبّهتني بوجودي في فوهة الخطر. اختنقت بالهبة، وتقيّأت الكدر، وازدادت القبضتان استبسالاً وتمسّكاً بالنتوء الحجري. هدأ الغزو، فهدأت، وعدت أفتّش عن الأغيار في السفح

الآخر. رأيتهم. رأيتهم في الحيد المواجه لموقعي بالضبط. كان جناح المرتفع، في ذلك الموقع، قد ركع إلى أسفل في انخفاض متسامح إذا قورن باستعلاء المواقع في السفوح الأخرى، فاختارته الأشباح ليكون لها معيناً في النزول إلى الوادي. بعضهم ظلّ معلّقاً في رأس القمّة، وبعضهم نزل السفح، والبعض الأخر بلغ حافة الوادي. مضى صياحهم يعلو. علا حتى كاد أن يتحوّل عراكاً وتنابزاً بالألقاب. تبيّنت الأنفار الذين هبطوا إلى الحضيض بوضوح. كان أحدهم يتفحّص الغمر بإمعان كأنّه يفتّش عن ضالّة، وكان رفيقه يشده إلى الوراء بحبل، وينحني إلى الأمام ليحذّره ويحثّه على الاحتراس. فهل يفتّشون عن... عن... عنّي؟ هل أصدّق أنهم يبحثون عنّي؟ هل أصدّق، بعد كلّ الشرّ الذي رأيت، أن قلب الأب لان، فأفلت من أحضان الحسناء، وأخرج الرجال من الأخبية، ليستعين بهم في إخراجي من الهاوية التي رمى بي في جوفها؟ هل أصدّق أن الأغيار يمكن أن يهبّوا لنجدة من كانوا في بلائه سبباً؟ هل أصدّق أن الخلق يمكن أن يتحرّروا من قماقم عزلتهم، ويهرعوا لإنقاذ ضحية ألقت بها أيديهم يوماً في عزلة القمقم؟

رفع أحدهم يده حول عينيه ليتبيّن في الغمر شيئاً. ليستوضح في الوادي ضالّة. فأي ضالّة يمكن أن يطلبها القوم في الوادي سواي؟ أي قربان يمكن أن يبتغيه القوم غير غلام مغلول اليدين والرجلين، كالشاة التي أعدّت للنحر، توطئة للسيل وتسهيلاً لالتقام الأضحية؟ بلى. بلى. ما زال في القوم الأخيار الذين يخرجون لانتشال الغريق من الوادي. ما زال في الصحراء الآباء الذين يقيّدون الأبناء ويلقون بهم في بطون الوديان ليلقّنوهم الدرس، ولكنهم يقرعون طبول الغزوات، يجمعون أشدّاء الرجال، ليعاركوا بهم السيول، لينتزعوا من

ألسنتها الضحايا. احتال عليّ الوسواس، فخنت الوصيّة، وخرجت لملاقاتهم بالنداء:

ـ آ ـ آ ـ آ ـ آ ...

ردّد الصلد الصدى. وتواصل النّداء في دمدمة السيل في الحضيض. فهل انتبهوا؟ هل استجابوا؟ هل وقفوا لي على مكان؟ تنادوا أيضاً. تصايحوا. تجادلوا. تشاوروا. ولكنهم لم ينتبهوا. لم يستجيبوا. لم يقفوا لي على مكان، ولم يسمعوا لي نداء. تقدّم أقربهم إلى الغمر. تقدّم مشدوداً إلى الحبل من وسطه، من حزامه، وطرف الحبل الآخر مشدود إلى يدي الرجل الذي يليه، والرجل الذي يلي الرجل الذي يليه يمسك بالحبل أيضاً. بدأ الرجل يخوض في المياه بحذر. خطا خطوة، خطوتين. خطا مستعيناً بعمود في يده إلى جانب الحبل. رفع العمود ورمى به إلى الأمام قبل أن يخطو خطوة جديدة. توقّف. عاين المكان. حادث رفيقه الذي يشدّ الحبل وراءه. انحنى باحتراس. رأيت السيل يغمر ساقيه حتى أسفل ركبتيه. رفع يده ليتبيّن الضالّة، فهرعت لملاقاته بالنداء مرّة أخرى:

ـ آ ـ آ ـ آ ـ آ ـ آ ...

لم يكن نداءً. كان صوتاً منكراً، صوتاً وحشياً، زلزالاً زعزع جدران الصلد، وبلغ أركان الصحراء، وسمعته السماء، وأيقظ الجنّ في مملكة الخفاء، فكيف لم يبلغ آذان هذه الأشباح التي تتنقّل أمام عينيّ، على بعد خطوات، في حضيض الضفة المضادّة؟

بعد قليل تبيّنت جرماً مشدوداً إلى شجرة رتم في عرض الوادي. تبيّنت كائناً جرفه السيل من الأعالي، وربما من شعاب الجوار، فاعترضته الشجرة، فأقبل الرجال في طلبه، وربطوا الأحزمة بالحبال لينتشلوه، فهل هو إنسان أم حيوان؟ التحمت بالحجر التحاماً اتّقاء لشرّ الغزو، وسددت بصري إلى

الجرم، فتبينّته. تبيّنت جسم حيوان، بل بعير، بل... بل حُوار لم تمضِ على ولادته سوى أسابيع، وربما أيام، فتدافع الفرسان بالمناكب وهرعوا لنجدته، في حين صمّوا آذانهم عن ندائي. استجابوا لنداء الحُوار، وصمّوا آذانهم عن ندائي، فتحسّرت، وعضضت شفتي ندماً. ندمت لأني استجبت لوساوس الشؤم برغم يأسي من جدوى النداء. لأني كنت على يقين خفيّ منذ البدء أنهم لن يسمعوني مهما زلزلت الأركان بالنداء. لأني كنت على يقين خفيّ بأنهم لن يهرعوا لنجدتي حتى لو سمعوني. لأني كنت على يقين خفيّ بأن نجدتي لن تكون على أيديهم حتى لو حاولوا أن ينقذوني. لأني ... لأني كنت على يقين خفيّ بأني مخلوق وحيد، وحيد، وحيد. والمخلوق الوحيد بيد الأغيار يغرق، بيد الأغيار يهلك، ولكنه ينجو بيده، لا بيد الأغيار. ذلك اليقين الخفي هو الذي أنقذني. اليقين كان لي إلهاماً أنزل في دمي تصميماً لا يُغلب، ومدّني بالمسّ الذي أخرجني من قيعان الهاوية، وزرع في قلبي تلك الأعجوبة التي دفعتني للزّحف، عبر السفح الحجريّ المكابر، على ظهري، مستعيناً بيدي المغلولتين، ورجليّ المشدودتين، ومرفقيّ الداميين، وركبتيّ المسلوختين، ومنكبيّ العاريين الموسّمين بالجراح والنزيف، وأظافري المسلولة، وأسناني وعضلاتي وعروقي ودمي الذي يجري في العروق. أصعد، أتلبّس الحجر، التحم بالحجر التحام العاشق بالمعشوق، أتواصل في بدن الحجر، وبدن الحجر يتواصل في بدني. أفقد الإحساس ببدني، وأستعير إحساس الحجر ببدني. يصير الحجر امتدادي، وأصير للحجر امتداداً، أغدو حجراً، والحجر يغدو بدناً. لهذا السبب لم أزحف، ولكن الحجر زحف بي في امتداده. لم أتسلّق السفح المكابر، ولكن حجر السفح هو الذي تسلّق بي السفح المكابر. لأن اليقين المبهم

الذي جعل لي، يوماً، العزلة قَدَراً، هو الذي جعل لي، اليوم، الحجر قريناً، ولباساً، ومعشوقاً؛ فصدّقته، وتعشّقته، وتلبّسته، وسلّمت له أمري، فلم يخنّي كما خانني الناس، ولم ينكرني كما أنكرني أقرب أقربائي. بوفاء الحجرِ قهرت الهاوية التي رماني في قاعها أقرب الخلق، وبلغت برٍّ جاسياءِ ساجعة، تستلقي، في كبرياء الكائنات الخالدة، وتتبدّد صوب كل الأركان، كأنّها تفرّ من نفسها فراراً أبديًا، فترتمي في قوس أفقٍ مزموم، مشدود إلى السماء اللامبالية بأغلال خفية.

أضاعني الخلق، فاستردّني الحجر.

أماتني الخلق، فأحياني الحجر.

٢١

كيف لا ينطلق لساني بأغنية الوداع وأنا أرى «هرو»(*) يتأهّب للإغارة علي عرش مولاي؟ ألم يعوّدنا الخريف أن يقتحم على الصحراء صيفها اقتحاماً، ويغزو سماواتها قبل حلول الميعاد الذي رسمته الأقدار؟ فانظر معي، يا مولاي، حال الصحاري كيف تبدّل! انظر إلي أيّ منقلب انقلبت السماوات في الصحاري على حين غرّة! انظر كيف يخاتل الخفاء، ويوسم الآفاق بالإيماء، قبل أن يغزو الصحراء بالغيث!

في أطراف الصحراء الشمالية تركد الأهوية، وتكفّ رياح الجنوب، فتنقطع البلبلة، ويتسلّط السكون، فتجسّس الخافية على البادية، وتستكشف البادية نوايا الخافية، ويوسوس في الأفئدة الخبر قبل أن يجري به القدر. تمتنع الأنسام زماناً،

(*) «هرو» إله المطر.

وتستسلم الكائنات لوجوم الغموض أياماً، قبل أن يتململ ريح الشمال، ويتنفّس بحياء العذارى، ويهب في جشأة الفجر بارداً، واعداً، بليلاً، مغسولاً بمياه البحار الشمالية البعيدة، فتتلقّفه الأفواه، وتنتعش بعطره الأنفس، وتتلهّف لاختطافه أعشاب الأحاضيض، وتتبلبل بذار الأرض، انتظاراً للأعجوبة التي تدبّر قران السماء بالأرض، وتبعث الأجنّة إلى الحياة بحلول الخريف في كلّ عام. ثمّ... ثمّ تقبل السحب، وقزع الغيم. تتبدى، في المتاهة السماوية الخاوية، ضائعةً، مشتّتةً، يائسةً، تهشّها أنفاس الشمال، عبر الفراغ الصحراويّ الظامئ، فتتضاءل، وتعبر، وتتبدّد. تتابع الكائنات رحلتها، وتتحسر لزوالها وتبتئس، ولكنها لا تيأس. لأن الرياح لا تلبث أن تدفع إلى المتاهات الصحراوية بأفواج سحب جديدة. سحب أقتم لوناً، وأكبر حجماً، وأكثر كثافة، وأعظم جسارة، لأنها تعصم الكائنات من طغيان شمس أيقنت، منذ زمن بعيد، أن من شرّها لاعاصم، فيئست من النجاة من بطشها كما يئست من الفوز بفيض الغمر. تنتعش كائنات الظمأ بالأنفاس البليلة، وتزداد كثافة الفلول الشماليّة، وتتلاحم في هذا الفراغ أو ذاك، دون أن تتوقّف عن زحفها، عبر الفضاء الصارم، المغسول بحريق الشموس الصيفيّة المعادية. فوق السلاسل الجبلية الشماليّة تتجهّم الآفاق، وتتمزّق ستور الغيم بنيران البروق، فلا تلبث الصحراء الملفوفة بالسكون والانتظار أن تتزلزل بقعقعات الرعود، وتهوى على تُربانٍ رامت نيران الأبد برذاذٍ بخيل لا يبلغ للصحراء أرضاً، لأنّ الأهوية المصهورة بأنفاس اللّهب تتلقفه قبل أن يسقط أرضاً، فيتبخّر، وينقشع، ويتبدّد. ولكنّ الرياح تشتدّ، وتهبّ في غارات متقطّعة، ولكنها أكثر امتلاءً بالرطوبة والبلل. مع الريح يعظم حجم القطرات أيضاً. تذهب الشمس إلى المنفى نهائياً،

وتقترب قعقعات الرعود كثيراً، وتهوي على الأرض قطرات حقيقيّة. قطرات سخيّة. قطرات ذات حجم لا يُصدّق. قطرات يُسمع لسقوطها صوت. ترتطم بالتراب الظمآن فتطلق صوتاً شجيّاً. يثير سقوطها غباراً. يثير سقوطها غباراً كما يثير الغبار سقوط الحجر على أرض ذات تراب لميس. تتابع القطرات فيرتفع الغبار في الهواء. يشتدّ تتابع القطرات فيسمع في أرض الحصباء الهسيس. هسيس مكتوم، غامض، يعيد إلى الذاكرة فحيح الجمر في المواقد عندما يغمر بالماء. الأرض، الآن، تطلق فحيحاً أيضاً. الغيث يباغت حريق الأزمنة، ويطفئ جمر السنين. بارتفاع الغبار في الفراغ، واشتداد صوت ارتطام القطرات بالتربان والحجارة والحصباء، وتفاقم الشكوى في الفحيح، يلتئم اللحن، وتنطلق من حضيض الأرض فتنوح الريح، في الفراغ، نواحاً موجعاً، وتقعقع الأعالي برعود الوعيد، وتتمزّق أكداس الغيوم بشرر البشارة، فيستقيم الهرج الأعلى إيقاعاً للوشوشة السفلى، وتنتظم الأغنية في النشيد الأبدي؛ فتستجيب الكائنات الصحراوية، لتصبح جزءاً من اللحن، جزءاً من الأغنية، جزءاً من الملحمة، جزءاً من القِران.

تنهال القطرات السخيّة على الأرض كالسياط، فتبقبق الأتربة وتغلي، فترتفع ذيول الغبار فوق سطح الأرض أشباراً، أذرعاً، ولكن غزارة الغيث تجبّها في منتصف المسافة، وتردّها على أعقابها، فتهوي إلى الحضيض ضائعةً في أكمام القطرات. ترتوي الجبوب والمرتفعات الجاسئة، والبلاقع المفروشة بالحجارة أوّلاً. ترتوي سريعاً، وتزهد في نصيبها عاجلاً، فتتحشرج بالفيض، وتلفظ النصيب، فيعلو الماء فوق أرضها، ويتلامع في خيوط لئيمة، تتسلّل في مسالك لا تدركها الأبصار، وتتململ، بشقاوة، في بغاء السبل.

تتنادى، وتستجمع ذيولها، قبل أن تشقّ لنفسها مسارب بين الحجارة، وتسيل. تحتال على العقبات لتسيل. تنسلّ بين الشقوق، وتجتنب الوعورة، وتهوي، دائماً، إلى الهاوية. تميل دائماً حيث تستميلها الأرض. تهتدي إلى سبيل الهاوية حتى في الأرض الساجعة التي تبدو في عين الكائنات استواءً. تهتدي إلى الهاويات في المسالك الخفيّة، وتمضي حتى تبلغ الشعاب العليا. تندفع عبر الشعاب بمرح التائه الذي وضع قدماً في السبيل. تتلاحق عبر الشعاب، تزداد عنفاً كلّما تقدّمت إلى الأمام؛ لأن الأحافير والأخاديد والمسالك التي تمزّق خدود الشعاب تمدّها بزادٍ جديد في كل شبر تقطعه في سفرها إلى الهاوية. تستزيد من جود الروافد العليا، وتنهب الأرض نزولاً إلى الأودية السفلية، إلى القيعان، إلى الأعماق المجهولة التي تقع وراء القيعان، إلى الجيوب المدسوسة في بطون الأرض، إلى المستقرّ، إلى الوطن. في الوطن الخفيّ تستكين. في الوطن تتخفّى كما يليق بكلّ سرّ أن يتخفّى. في الوطن تستر نفسها بنفسها كما يليق بكلّ كنز أن يتستّر. لأن السرّ الذي لا يتخفّى لن يكون سرّاً. لأن الكنز الذي لا يتستّر لا يصير كنزاً.

تندفع في طريقها إلى الأسفل بحماس العشّاق. تتلاطم في مسافات أخرى، وترفع عقيرتها بأغنية الحنين إلى الوطن. تلطم في ركضها الأنصاب والأشجار والعشب اليباب. تجرف في لسانها قشّاً وأعشاشاً وبعراً ورملاً. تبلغ شطّ الوادي. تشرف علي هاوية الوادي. تقفز في يمّ الوادي. تتواصل في خضمّ الوادي. تصير جزءاً من غمر الوادي. تستحيل كلاً في مارد الوادي. تنقلب مارداً يضيق بجرمه الوادي. تسافر في طلب الوطن. تسافر في بُغاء هاوية أكثر ضِعةً. تستعجل الغاية. تتمرد على الشطآن في مضائق الوديان، فتفيض يمنة

ويسرةً. تجرف الكائنات في البطون. تنتزع لنفسها قرابين الأنعام والأنام. تأخذ بيدها من كلّ ملّة قرباناً. تنتهب قرابين المخلوقات لتحيي بالقرابين المخلوقات. تنتهب قرابين المخلوقات لتهب الحياة لأجيال المخلوقات. تمضي. تمضي ما استمرّت الهاوية تهوي، وما استمرّ الغيث في الأعالي يهوي. تهوي مع الهاوية حتى تبلغ الصحراء الرملية في أقاصي الجنوب. ساعتها، فقط، تتمهّل، وتتكاسل، وتلتقط أنفاسها من الوعثاء، قبل أن تندفن في الوعثاء. ساعتها تلتفت لنفسها، وتكتشف أنها قطعت في سفرها مشواراً بعيداً، وبلغت أرضاً لم تبلغها السيول آلاف السنين. يرتفع فوق مفاوزها قرص شرّير يصلي الأسافل ناراً حقيقيّة. في هذا الركن ينقلب الوطن للقطرة مثوى. في هذا الركن تجود القطرة القادمة من أقاصي الشمال بجرمها أنفاساً يتلقّفها الهواء الظامئ بخاراً وسلسبيلاً. في هذا الركن تستجير القطرة بالأرض فراراً من شمس تتوعّدها بالفناء قصاصاً. في هذا الركن تهوي القطرة إلى أسفل الأسافل. تتسلّل عبر ذرّات الرمل، تدفن نفسها لتتوارى عن أنظار القرص الفظيع، تخترق بدن الأرض هرباً من الشبح الشرّير. تهوي. تمضي في الهاوية بعيداً، بعيداً، حتى تتواصل في مياه الأزل، فتجد لنفسها في الأعماق مستقراً. تبلغ الوطن. تعتصم بالوطن. تنكمش في ظلمة الجوف لتصير، في بطن الأرض، كنزاً.

جزء القطرة الذي يتبخّر يغدو، في السّماء، سرّاً.

جزء القطرة الذي يندسّ في الأعماق يغدو، للأرض، كنزاً.

نهاية الجزء الأوّل

بحيرة تون (الألب السويسري)

■

مؤلفات ابراهيم الكوني

١ . الصلاة خارج نطاق الأوقات الخمسة (قصص) ١٩٧٤ .
٢ . جرعة من دم (قصص) ١٩٨٣ .
٣ . شجرة الرتم (قصص) ١٩٨٦ .
٤ . رباعية الخسوف ١٩٨٩ .
٥ . البئر (رواية) .
٦ . الواحة (رواية) .
٧ . اخبار الطوفان (رواية) .
٨ . نداء الوقواق (رواية) .
٩ . التّبر (رواية) ١٩٩٠م .
١٠ . نزيف الحجر (رواية) ١٩٩٠ .
١١ . القفص (قصص) ١٩٩٠ .
١٢ . المجوس (رواية) الجزء الأول ١٩٩٠ .
١٣ . المجوس (رواية) الجزء الثاني ١٩٩١ .
١٤ . ديوان النثر البرّي (قصص) ١٩٩١ .
١٥ . وطن الرؤى السماويّة (قصص) ١٩٩١ .
١٦ . الوقائع المفقودة من سيرة المجوس (قصص) ١٩٩٢ .
١٧ . خريف الدرويش (رواية ، قصص ، أساطير) ١٩٩٤ .
١٨ . الفم (رواية) ١٩٩٤ .
١٩ . السحرة (رواية) الجزء الأول ١٩٩٤ .
٢٠ . السحرة (رواية) الجزء الثاني ١٩٩٥ .
٢١ . فتنة الزؤان (رواية) ١٩٩٥ .

٢٢ . برّ الخيتعور (رواية) ١٩٩٧ .
٢٣ . واو الصغرى (رواية) ١٩٩٧
٢٤ . عشب الليل (رواية) ١٩٩٧ .
٢٥ . الدمية (رواية) ١٩٩٨ .
٢٦ . صحرائي الكبرى (نصوص) ١٩٩٨ .
٢٧ . الفزاعة (رواية) ١٩٩٨ .
٢٨ . الناموس (الجزء الأوّل) ١٩٩٨ .
٢٩ . في طلب الناموس المفقود (الجزء الثاني من الناموس) ١٩٩٩ .
٣٠ . سأسِرٌ بأمري لخلاّني الفصول (ملحمة روائية) (الشَّرخ، الجزء الأول) ١٩٩٩ .

قيد الطبع:
٣١ . أمثال الزمان (الجزء الثالث من الناموس) ١٩٩٩ .
٣٢ . سأسِرٌ بأمري لخلاّني الفصول (البلبال ـ الجزء الثاني) ١٩٩٩ .

أنجزت المطبعة العربية
بيروت ـ لبنان
طباعة هذا الكتاب
في شهر كانون الثاني ١٩٩٩